محمد عبد الحليم عبد الله
أسطورة من كتاب الحب

مطبوعات مكتبة مصر

كتاب عربي
(قراءات) مكتبة الإسكندرية
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

رقم التسجيل . ٦٢٢٢

أسطورة من كتاب الحب

محمد عبد الحليم عبد الله

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"
سعيد جودة السحار وشركاه

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

أسطورة من كتاب الحب

طبيب « المركز الاجتماعى » رجل معروف بحبه للناس . ليس الناس الذين يختلط بهم ، أصدقاءه أو أقاربه . بل هم الناس كمجموعة ينظر إليها بشغف وتفحُّص نظرة الهاوى إلى مجموعة من الصور التى خلقتها يد فنان عظيم .

وطبيب المركز ليس وسيما ولا كبير السن ولا معتدًّا بهندامه ، بل هو شاب متوسط العمر يهمل ياقة القميص ، وآثار التدخين بادية على أسنانه باستمرار . لكنه يتعهد « روحه » بالتنظيف المستمر . فهو عندما يحس بالقسوة لسبب من الأسباب التى تعبىء النفس الإنسانية بما يعيدها إلى موقع قريب من الرجل البدائى ذى الأظفار والأنياب — عندما يحس بذلك يتعهد نفسه وروحه بالعلاج . يبدأ فى عمل يشعره بضعف الإنسان ، كأن ينظر إلى صورة بعوضة فى كتاب طبى ثم يتذكر معها قصة أحد فرسان التتار الذى رووا عنه أن معسكر أعدائه بات خائفا من حد سيفه . ولو أن هذه البعوضة قبَّلته قبل تلك الليلة عدة قبلات وسرى رحيقها المسموم فى دمه فماذا كان يفعل ؟!.. ويأخذ الطبيب فى الموازنة تحت سحابة من دخان اللفائف بين إبرة البعوضة وسيف الفارس وبين تلك الصيحة من حنجرته العاتية وبين أنينها الوانى

الذى يشبه الاستسلام للألم أو للذة وهى مكبَّة على دمه ترشف منه .

عندئذ يتذكر ضعف الإنسان فلا تلبث روحه التى تداعبها القسوة أن تتطامن ، ويستشعر شيئا من الأسى على الإنسان كمجموع . ثم يلجأ إلى شىء يقرؤه . من تلك الكتب الأخرى التى أنتجها الوجدان لا العقل . شِعراً أو قصة ليرى النفس الإنسانية عارية أمامه كجسد أحد الفلاحين من الذين يستلقون كل يوم بالعشرات على سرير الفحص . فلا يلبث أن يستريح ..

لكنه فى هذه الليلة سمع نقراً على شبَّاكه . نقراً كاد يعرفه أول الأمر . لكنه ما لبث أن استشعر الخوف . وسأل من وراء النافذة :

ـــ من ؟..

جاءته ضحكة منطوية على نفسها . متخاذلة . صاحبها يغالب همه فى الظلام . قال صاحبها بعد تنحنح :

ـــ أنا .. متى ستعرفنى ؟!

فتنهد الطبيب وقام يفتح . والوقت خريف .. وفى الجو رطوبة مستحبة . ورائحة بعض أشجار الموالح من ليمون وبرتقال تملأ نفس الليل . ومع صرير الباب كانت دقات عصاه التى يتوكأ عليها تعد على بلاط المدخل عدد خطا الوافد :

ـــ أهلا وسهلا يا عم الحاج . هل أحسست بتعب مفاجىء ؟..

ولم يرد عليه الحاج . كان جسمه الثقيل مائلا إلى الأمام وأردافه بادية الضخامة تحت جلبابه الصوفى الواسع الخفيف ، وأنفاسه سريعةٌ مع ابتسام وأنين كأنه يريد أن يؤكد للطبيب أنه غير مبال بالآلام ..

ثم جلس بعد جهد على كرسى مريح اعتاد دائما أن يجلس عليه . وجلس الطبيب يفحص ملامح الوافد ، ويمهله فلا يكلمه حتى يستريح .

كانت يده اليسرى على قلبه ، وعصاه الغليظة بين فخذيه ، ومنديله على جبهته يجفف به عرقا ومن ثنايا المنديل فاحت رائحة لا تنسب إلى أصلها بسهولة . وكانت عادة الطبيب مع هذا المريض أن يستمع إليه ، وأن يفحص كل ما يقول متلذذا به كنموذج تطبيقى لنفس غريبة يقع فحصها عنده فى المحل الأول .

ومن عادة هذا المريض الذى جاوز الستين أن يتكلم بلهجة شاكية ثم تئز نبرته قبل أن يسكت كأنه استسلم للألم أو اللذة .

وفرك الطبيب كفًّا بكف ثم سأله بصوت هادىء :

ــ هل أنت مأزوم ؟!

فرد بلهجة شاكية :

ــ نعم .. آه .. إننى بخير منذ ثلاثة أيام .. نعم .. ينطبق علىَّ المثل القائل : « يا قاعدين يكفيكم شر الداخلين » .. المشاكل من برّه . يحملون إلىَّ أخبارا تسبِّب لى أزمات فى

القلب .. آه ..

ـــ خير ..

ـــ ليس لي شأن بأحد . دخل عليَّ ابنى فأخبرنى أن قطن عبد الواحد عبده أعطى تسعة قناطير للفدان .

ـــ ثم ..؟

ـــ تسعة قناطير تصور يا دكتور .. وقطنى أربعة للفدان .. تصور . أن كل فدانين وأكثر عندى بفدان واحد عنده . و .. آه .. ثم .. قامت مشادة بيني وبين ابنى .. قلت له : إننا لسنا محتاجين لشيء فلا تضايقنى بأخبار الناس .. آه .. أنت تعلم أنه وحيدى .. (وضحك فى عناء) وكنت أنا وحيد أبى .. (ها ها هى) .. وليت الحظ يسعده فيصبح هو الآخر والدا لولد وحيد .. إنه لا يريد أن ينجب .. كل أطفاله يموتون ..

غمغم الطبيب لأنه يعرف السبب . دمهم غير نقى كما يقول الريفيون . لكن كثيرا من الناس كما هو معروف يرفضون أن يحملوا ألقاب مرضهم ، ولو أنهم يعانون منه فى خلواتهم فوق ما يطيقون . وقطع الطبيب عليه حديثه كأنما ليمنحه فرصة للراحة :

ـــ غدا يشبع أولادا ..

فرد الرجل بصوته الشاكى :

ـــ لا . ما أظن .. قلت له لا تذكر أمامى سيرة الناس خصوصا عبد الواحد عبده هذا . هذا الذى ولدت بقرته توأما يوم أجهضت

زوجة ابنى . كل شىء عنده بغير حساب .. دجاجهم يبيض ونساؤهم تلد وأرضهم تعطى أضعاف المعتاد .. وعبد الواحد عبده هذا .. آه .. فى السبعين من عمره ، يصعد السلم الخشبى مثل عسكرى المطافى وأنا .. لا أستطيع المشى على الأرض .. آه .. قلت لابنى لا تذكره أمامى .. لكن ..

عندئذ وثبت للطبيب فكرة . أحس أن هذا الرجل يعانى شيئا غريبا . إنه كثيرا ما حدثه عن نعم أخرى لناس آخرين بطريقة من يريد أن يقيم من حسده سدًّا بين الله وعباده ، فقال الطبيب فجأة بعد أن نظر فى ساعة معصمه :

ــ لو أنك حضرت قبل ذلك بساعة واحدة يا حاج . لرأيت شيئا عجيبا .

ــ خير ..

ــ كان عندى منذ ساعة المدعو عبد الواحد عبده .. جاء يعانى أزمة وظهر أنه فى حاجة إلى الراحة ولن يصعد السلم مثل عسكرى المطافى بعد اليوم ..

بدت راحة غريبة على وجه الرجل . أخذت أنفاسه تنتظم نوعا ما وقام الطبيب فجس نبضه فإذا به قريب من العادى . شعر أن هذا الرجل قد أدمن الحقد فهو إذا لم يأخذ منه جرعة بعد جرعة فى فترة بعد فترة تسمم دمه مثل مدمن الأفيون . وأن استئصال هذا عمل عقيم . ثم عاد الطبيب فجلس ووضع ساقا على ساق وأشعل لفافة

واستطرد سائلا :

ـــ عم الحاج ؟ ألم يسبق لك أن وقعت فى تجربة حب ..؟

اتكأ الرجل على عصاه وهو جالس كأنه يريد أن يقفز فخذلته قواه ثم شهق مجيبا :

ـــ حب ؟ عيب يا بنى ..

ـــ لا لا .. ليس قصدى عارا . إن قصدى شريف . فقد يحب الرجل زوجته ، وقد يحب ابنه ، وقد يحب إنسانا غير هذين . لكن بشرط أن يشعر أنه يستمد الجزء الأكبر من سعادته القلبية عن طريق الانسان الآخر ..

ـــ ها ها ها (ضحك بقوة) أنا أحب الذى يعطينى .. وكل الناس كذلك ..

ـــ دعك من الناس . تكلم عن نفسك فأنا شخصيا أحب من أعطيه . أحب من أسهر فى سبيل البحث عن وقايتهم . وأحب أخى الصغير حين يعلن أن بذلته التى اشتريتها له ضاقت عليه ويطالبنى ببذلة أخرى . والإسورة الذهبية التى تلمع فى معصم أمى والتى ادخرتها من مرتبى .. والوجه المورد بلون الصحة حين يدخل علىَّ وأنا السبب . والقلب .. والقلب يا عم الحاج حين ينتظم عمله بمعونة منى ..

تنهد الرجل وأعرض كأنه لم يفهم قصد الشاب ثم وضع كفه على قلبه من جديد ، وقال هامسا :

ـــ إذن ساعدنى ..

ـــ عبد الواحد عبده لم يمرض ولكننى كنت أداعبك ..

حملق فيه الرجل ولم يردّ ثم سأل فى احتجاج هادىء :

ـــ ولماذا تقول ما قلت ؟

ـــ لا شيء .. أحسست فقط ـــ كما جربت ـــ أن كثيرا من المرضى يؤنسهم فى مرضهم أن ينضم إليهم مريض جديد .. كأنهم وهم فى الخارج يعانون ما يعانيه السجين الواحد .. فى زنزانة . لكن . عندما يصبح الواحد اثنين تخف وطأة الألم ولو مؤقتا .. شيوع البلايا يا عمى يخفف من وطأتها ..

أطرق الرجل وأسند ذقنه على عصاه وبدا عليه تفكير عميق . وطال الصمت وطال ووصل إلى أسماعهم عراك طيور على ذوائب شجرة قريبة . كأنها تتنازع العيش أو لعل واحداً منها قد سقط على الأرض . وأغمض الرجل عينيه وكان كأنما عاد بذهنه إلى الماضى . ولأمر ما ـــ كالذى يصيب كل نفس ـــ شعر بحاجة ماسة إلى الاعتراف . ذلك الذى يسيطر على النفوس التى تحمل عقدة الذنب فى صمت أكثر مما يسيطر على غيرها . وأحس لو أنه باح بشىء مما فى صدره لانتظمت دقات قلبه : ذلك المخزن المليء بأشياء معنوية قد تكون فى ثقل الرصاص أو كثافة الزئبق وهو مع ذلك ينبض فى دأب متواصل غير معترف بأحماله . ثم صحا من غفوته ونظر بعينين متعبتين إلى الطبيب وقال :

ـــ ممكن أن أحكي لك شيئا .. أنا الآن أكثر راحة .. ممكن أن أقول ولا أخاف .. إنني لم أحب أحدا . كنت إذا نظرت في المرآة وأنا شاب أسأل نفسي حين أرى خيالي : « هل هذا الذي يشبهني تماما يمكن أن أحبه لو أنه خرج من المرآة بقدرة الله وعاش معي . أفكاره ستكون أفكاري وميوله ميولي لكن ربما أختلف معه لأني أختلف مع نفسي كثيرا . ما شعرت مرة يا ولدي ولو لدقيقة واحدة أن إنسانا أهم مني . والآباء والأمهات يحسون بأهمية حياة أولادهم في ساعات المرض ويدعون الله أن يكونوا هم فداء لهم . وعندما كانت زوجتي تفعل ذلك كنت أخاف عليها مني أن أخنقها رغما عني . وكنا ونحن شبان نحكي لبعضنا قصصا فحكى لي أندادي عن القلب المشغول لكني لم أجرب هذا ولم أشعر بوجود قلبي أبدا إلا إذا خفق من الجري أو الخوف .. ثم شعرت به عندما خفق من المرض .. آه .. تعبت ..

كان الطبيب مستغرقا في الاستماع ، متأكدا من صحة ما قاله الرجل . وكان يعلم شيئا آخر هو أن هذا الرجل يعيش في قلق مستمر من ضجره بسعادة الغير . يجلس على قارعة الطريق ليذمّ الأيام التي كبّرت الصغير وأغنت الفقير . كأن كل شيء ضده .. أو كأن كل نعمة كانت في الطريق إليه ثم أخطأت فدخلت بابا غير بابه . وعندئذ قال الشاب :

ـــ اسمع يا عم الحاج عندي حكاية طريفة فهل أنت على

استعداد لسماعها ؟

ــ بكل امتنان !..

ــ حسن : كان لى جدة عظيمة ، عظيمة ليس معناها أنها كانت أميرة أو بنت رجل غنى . لكن عظمتها فى نظرى كانت فى قدرتها على امتلاك قلوب كل من حولها ، وكنا نتخيل ونحن أطفال ملتفين حولها من بناتها الأربع أن الحَلَّة الصغيرة التى تقدم لنا منها طعامنا يوم نزورها لا يمكن أن تفرغ مما فيها ولو كنا مائة طفل . لماذا ؟! لأننا كنا نأكل من يدها القليل فنشبع ثم تلمسنا بأناملها فلا نلبث أن ننام .

وجدَّتى هذه حكت لى حكاية لا أنساها ، وكنت يومئذ فى السابعة من عمرى .. عندها .. فى ليلة شتوية وأمى فى المدينة عند طبيب العيون الذى مكثت عنده شهرا كاملا . قالت لى جدتى : كان فى إحدى البرارى المليئة بالأشجار والثمار والطيور المغردة ، شجرة كبيرة على شاطىء النهر وهذه الشجرة كانت أسعد الأشجار حظا فى هذه المنطقة كلها ؛ لأن عليها عدد لا يحصى من أصناف الطيور المغردة ولأنه يجلس تحتها كل يوم شاب وفتاة يحب بعضهما بعضا ، وكان الشاب يغنى لها وهى ترقص وقد صنعت له حزاما من الأغصان وعقدا من الأزهار وفى كل يد ثمرة ناضجة ، وعندما يبدأ هو فى الغناء وتبدأ هى فى الرقص تأخذ جميع الطيور على الشجرة التى تظللهم ـــ تأخذ فى الغناء

دقّات عصاه تعد خطاه ...

فرحة بالحب .. لكن كان بين تلك الطيور طائر مجهول الاسم ينظر إلى هذه الدنيا العذبة فوق الشجرة وتحتها بكثير من الحزن وذلك لعجزه الطبيعي عن الغناء ، لكن ما لبث هذا الشوق أن دفعه على تقليد الطيور فأخذ يشقشق بطريقة ما . وبمرور الزمن انقطع الحبيبان عن الحضور وكفت الطيور عن الشقشقة وبذلك نسى هذا الطائر المجهول الاسم غناءه مرة أخرى وعاد إلى الصمت . ثم مرت الأيام وإذا بالحبيب يحضر إلى الشجرة ويجلس تحتها وحده صامتا يبدو عليه الحزن والمرض وتعرف الطيور بغريزتها أن حبيبته قد ماتت لأنه جلس يغنى بصوت خافت ودموعه تتساقط على الأرض . لكن الطائر المجهول الاسم وكان قد فقد وليفته هو الآخر أحس بشوق جديد عندما رأى الحبيب الوحيد شريكه فى الأسى ، فبدلا من أن يغرد أو يشقشق نطق كما ينطق الإنسان وشارك هذا الشاب حديثه عن الحب . يردد كل كلمة يقولها ولا يزال كذلك حتى اليوم .

إن الببغاء لم يكن ناطقا ولا مغردا ولا مشقشقا ولكنه نطق عندما لمسه الحب ..

وسكت الطبيب . وقال الرجل :

ـــ يا لها من حكاية طريفة !. لكن كيف تذكرها حتى الآن وقد مضى عليها ثلاثون عاما ؟

فقال الطبيب :

ـــ ذلك لأن قلبى حفظها كما يحفظ كيف يخفق . وأنا يا عمى العزيز أهديها إلى قلبك فإن حفظها كما حفظها قلبى أصبحت سليما معافى . فأنت لست مريضا بالقلب ولكنك يا سيدى محتاج إلى الحب .

وفى الخارج ـــ عندئذ ـــ غرَّد بلبل فى السماء الندية كأنه يؤكد للساهرين ـــ الطبيب والمريض ـــ أن أسطورة الببغاء صحيحة

غناء عند الأقدام

منذ ثلاثة أعوام وهو جالس أمام هذا الكرسى .. ولسبب أصبح واضحا فى ذهنه أصبح يطلق عليه اسم « الحصان » ، وهناك فى أعماق نفسه علاقة تشبه المودة التى تولد بمرور الزمن بين الحصان والسائس . فهو ينظر إلى هذا الكرسى ذى المحور الدوار والمستوى على منصة من الخشب يلمع عليها مشمع ألوانه زاهية ـ ينظر إلى هذا الكرسى نظرة مودة تشوبها الألفة التى تفرض نفسها علينا فرضا .

فهو منذ أن اشتغل فى صالون مسح الأحذية هذا وهو يحس أنه (يعيش بالمقلوب) . المرايا الكبيرة تقع خلفه . وطالما حملق فى وجوه الناظرين فيها . وبين وهلة ووهلة وهو منكب على عمله فى تلميع جلد الحذاء يفطن إلى أحدهم وهو يسوى شاربه أو يعدل قميصه أو يعيد إحدى خصلات شعره إلى مكانها إذا كان شابا فى مقتبل العمر . وقد يبتسم الشاب لنفسه دون أن يلحظ أن ذلك القابع هناك على الأرض يلاحظ ابتسامة الإعجاب فى غبطة محزونة .

وأحس أنه (يعيش بالمقلوب) أيضا لأنه أمام هذا الكرسى لا فوق هذا الكرسى ولأنه يرى الأقدام لا الوجوه . وكثيرا ما تمنى لو أن الظروف قد أتاحت له أن يحترف حرفة أخرى . وقال فى نفسه

يومئذ وهو مكب على حذاء يبلغ طوله قدماً إنجليزيا .. طول المسطرة .. كان موحلا وكان ينقيه من بلاياه ، والشاب صاحب الحذاء تبدو عليه البداتة والميل للمغامرة . ومن فوق الكرسى كان يحملق فى المرآة أمامه والشاب الذى تحت الكرسى يحملق فى الحذاء وظهره للمرآة ويفكر : « لو أن الظروف أعطته مهنة أخرى .. حلّاق مثلا . إنه على الأقل يكون فى حال سعيد . فالمرآة أمامه ويقضى عمله وهو واقف منتصب الطول . ووجوه الناس فى متناول نظره حتى ولو كان خلفهم وهو يعمل لأنه سيرى وجوههم فى المرآة مع وجهه هو وسيتولى تنظيف أعظم ما فى الإنسان .. الرأس .. وقد يتابع فى صمت وهو يستمع إلى ضربات المقص حركة الأفكار فى ذلك الإنسان الصامت حين تسرقها المرآة من ملامح الوجه ويراها هو دون أن يفطن صاحبها . أما فى هذا الوضع .. تحت الكرسى .. وهو ينظف أدنى الأشياء فإنه لا يستطيع أن يرى ما هو جميل .. مثل الملامح والأفكار ولون الشعر والبشرة .

وسأل نفسه : لماذا احترف هذه الحرفة ؟ وسرعان ما جاء الجواب من ماضيه . إنه كان يكره كل ما هو صعب . كان يريد أن يتعلم صنعة سهلة . وعندئذ قال له أبوه : وهل هناك صنعة سهلة يا بنى . إن السهل لا يمكن أن يكون صنعة . فالصنعة معناها تعب والتعب معناه عرق .

لكنه لم يستجب للنصائح . لم تعجبه ميكانيكا السيارات فهرب .. عزَّ عليه أن يلبس ملابس ملوثة وينام على ظهره تحت هياكل العربات ويخرج بخدود عليها بقع سوداء ..

وأخيرا أوصله المطاف إلى هنا .. حيث تقع المرايا خلفه والوجوه أعلاه . وها هى ذى يداه قد امتلأت بقعا من كل لون . وجلبابه الذى يرتديه لا فرق بينه وبين خرقة التنظيف التى يمسكها بيده .

وتنهد . ونظر إلى الكرسى الخالى نظرة السايس إلى الحصان . لقد لمَّع خشبه اليوم بأمر صاحب الصالون منذ الصباح الباكر وغيَّر بياضة الشلتة المدوَّرة فوق الكرسى . كساها بياضة جديدة فى أول الأسبوع . وأدار الكرسى الخالى أمامه عدة مرات على محوره وتركه مستقرا ذراعاه مفتوحتان نحو الباب كأنما ليستقبل الزبائن . وبدورة واحدة يفعلها الزبون بجسمه يصبح فى وضع مواجه للمرآة وقدماه على قدمى الحديد المثبَّتين أمام الشاب . ليمسح ..

وشعر الشاب بشىء غريب . أن علاقة مثل علاقة « الأسرى » تربطه بهذا الكرسى . ولذ له تأمل الناس وهم يستمدون شيئا يشبه الخيلاء من جلسته هو وفكر : « هل يشعر الجالس على كرسى الحلاق بمثل هذه الخيلاء ؟! » .

وأجاب نفسه بالنفى .. « لا » ..

إذن لم هذا ؟! هل الزهو والخيلاء يولد من المتضادات ؟.

ولعله فهم هذا . ففجأة تذكر نفسه وهو غلام .. واقف بكل ما فيه من فكاهة وعدم مبالاة ينظر إلى طيور « أبو قردان » العارية السيقان المقوسة الظهر والكتف .. ينظر إليها ويضحك كأنه لم يرها طول عمره . وعندئذ سأله أبوه : « ماذا أصابك يا ولد .. إنها مخلوقات الله !! » .

فرد قائلا : « تصورت يا أبى أن الطاووس وأبو قردان حبسا فى قفص واحد » .

وترك والده يرسم بقية الصورة بخيال رجل كما يرسمها هو الآن . فأحس أن الخيلاء أحيانا تأتى بسبب « كرسى » أو بسبب رؤية من هو أقل ذكاء أو مهارة أو جمالا أو حتى .. « مهنة » ..

وعض شفته ... « لو لم أهرب من الصعب لكانت حياتى اليوم سهلة » !.

* * *

فى أحد شوارع القاهرة الآن بحى السيدة زينب شاب يلبس معطفا جديدا .. قديما ، فوق جلباب جديد جديد ، وفى قدميه حذاء جديد قديم وجورب جديد جديد ..

يشعر بخيلاء طارئة . كم وقف أمام واجهات صالونات الحلاقة ومرايا الفاترينات ليتأمل وجهه المرتاح وشعره المرجّل الملمّع بالبريانتين .

وجلس على أحد المقاهى وصفّق فإذا برجل يسارع ملبيا

تصفيقته وما لبث أن قدم إليه فنجالا من « السحلب » ..

نكهة « القرفة » على سطح الشراب تداعب أحلام هذا الشاب وامتزجت هذه بروائح الليمون والبخور مع روائح « الزلابيا » التى تقلى فى دكان مواجه فمنحت الشاب خيالا مجنحا حمله إلى قمة مئذنة السيدة زينب التي يراها عبر الميدان . وتأوه فى تلذذ وفرك يديه .. ونظر فيهما كأنه يقرأ فى خطوطهما همس المستقبل ..

كان يتأمل الدنيا بعين مرتاحة ، ورأى ملامحها بعين الفنان الذى يرى فى الخرائب شيئا تعبر عنه « الريشة » ، وفجأة قام ليعبر الشارع متجها إلى حيث لا يدرى ..

إن وجه القاهرة اليوم فى نظره ذو ملامح أخاذة .. كم تمنى لو استطاع أن يضمها بين حضنيه .

وسمع صوتا يلعنه وهو يعبر الشارع ، وكان ضجرا نافد الصبر يتهمه بالعمى . وحين نظر إلى مصدره وجده رجلا يسوق سيارته وقد وقف بها فجأة قبل أن يدهمه ؛ لأن ذلك الشاب ذا المعطف الجديد القديم والجلباب الجديد الجديد ، تحرك فجأة إلى العبور وهو واقف على إحدى جزر الشارع فلم يعط فرصة لسائق السيارة أن يعرف نيته عن الحركة .

غير أن الشاب لم يأبه بهذا . سار صامتا وكأن الكلام لم يوجه إليه ، بل .. عجب حين تمنى بعد أن وصل إلى الرصيف أن لو كان دهمه فمات .. إنه لا يريد أن يفارق هذه الحالة من الرضا

والطمأنينة والسعادة بشيء غير محدود يراه فى كل شيء ويشمه فى كل رائحة ، وبما أن هذه الحالة غير ممكن لها أن تبقى فما أروع أن يفارق الإنسان فيها الحياة !..

وها هو ذا ينظر إلى حذائه فيراه قد اتسخ . كان فى ميدان السيدة خندق طويل وطين وتراب لأنهم يصلحون أنابيب المياه . وقد تلوث حذاؤه وهو يعبر الميدان لكنه لم يشعر به إلا فى هذه اللحظة . ولعل السبب المباشر لهذا الإحساس أنه رأى لافتة كبيرة كتب عليها (صالون مسح الأحذية) ورأى عند مدخل الصالون مباشرة كرسيا ذراعاه مفتوحتان نحو الشارع مستويا على المنصة وكأنه حصان ملأه الزهو .

وعرج ودخل ..

جلس والمرآة أمامه وقدماه على قدمى الحديد وشاب فى مثل سنه كأنه مولود معه فى يوم واحد قابع عند الأقدام .

ونظر إليه الشاب ذو الحذاء الجديد القديم بكثير من الرثاء ، وهو فى أوائل العمل ثم ما لبث أن سأله :

ـــ من متى تشتغل فى ..

رفع الشاب إليه رأسه وسأله :

ـــ فى .. ما قصدك ؟!.. الدكان أو الصنعة ؟!

ـــ قصدى الصنعة !!

فتنهد الشاب وسكت ، وأخذ يلمع الحذاء بحركة سريعة وكل

شيء فيه يهتز . شعره . كتفاه . ركبتاه . كأنه يزيل أوحال الدنيا عن هذا الحذاء . ولم يرد عليه ..

ومرت لحظات كأنها دهر . كان الشاب الجالس على الكرسى فيها مشغولا بمطالعة صفحة وجه نفسه فى المرآة أمامه ويذكر بحواشى شعوره أن شخصا آخر يعطى ظهره للمرآة وأن قدمه داخل الحذاء تشعر بلذة يد تلمسها من فوق الجلد الذى يدهن ويلمع .

ولم يفق الجالس على الكرسى إلا على صوت الشاب الجالس على الأرض وهو يقول لصبى صغير بلهجة عصبية :

ـــ افتح لنا الراديو يا بنى !!

وفعل الصبى . وأخذ الراديو يغنى . والشاب الجالس أمام الأقدام يتابع الأغنية بصوت منخفض حزين ..

نظر إليه الجالس على الكرسى وشعر بإحساس متفوق . إحساس من يريد أن يربت على شعره ذى اللونين المتداخلين فى أصفر كالح وأسود غير داكن ، وبإحساس من يريد أن يعطيه كل ما فى جيبه من قروش لأنه لم يكن موسر الحال .

ونظر إلى يديه الملونتين بأنواع من البقع وجلبابه الذى يشبه الخرقة التى يعمل بها ـــ فى اللحظة التى كان هو فيها قد انتهى من فردة حذاء واستعد للعمل فى الثانية . وفى وهلة ذات عمق يشبه الدهر . أحس الجالس على الكرسى أن الشلتة تحته لينة جدا وأنه

كان يلوم نفسه .. تلك التى نسيت ماضيها

لا يريد أن يفارق هذه الجلسة . وكأنه نسى ذلك الإنسان الذى شعر نحوه بالرثاء أول ما رآه وتابع دندنته بقلبه وهو يغنى عند قدميه ..

وعندئذ .. نظر الجالس على الكرسى إلى يديه هو . وكانت كفاه مخبئتين فى جيبى معطفه .. نظر .. فرأى بقعا .. سوداء وحمراء .. لم يستطع الغسل القوى أن يزيلها ..

وعندئذ نزل من على الكرسي معتذرا بأنه داخ .. وجلس على كرسى عادى ، وقدم الفردة الأخرى للشاب بعد أن خلعها لكى ينظفها وهى غير ملبوسة .

كان قد داخ فعلا .. لأن زهوا وخيلاء أنسته أنه هو .. هو ذلك الذى يحترف نفس الحرفة والذى بحث وهو صغير عن عمل سهل وهرب من ميكانيكا السيارات لكنه كان فى إجازة .. ولذ له أن يذوق تجربة الجلوس فوق هذا النوع من الكراسى التى قضى عمرا وهو جالس تحت أقدامها .. فداخ ..

منح الشاب منحة عجب لها لأنها فوق قدرة من هو في مثل مظهره . وسار فى الطريق ينظر إلى حذائه اللامع ويخيل إليه أنه قد حمل أوحال الدنيا ؛ لأنه كان مهموما . كان يلوم نفسه . تلك التى نسيت ماضيها ؟!.. بل حاضرها فأحس بزهو على رفيقه فى المهنة التى يكرهانها معا ..

لكنه كان يقول فى نفسه : « هناك أشياء يجب أن يعملها الناس لنفسهم بنفسهم .. حبا فى الناس » ..

العازف

ماذا يساوى هذا « العود » الذى يحتضنه وماذا تساوى الأنغام إذا ما وازن الناس بين هذا وبين ما قد سمعوه فى الداخل منذ خمس دقائق على الأكثر ؟!

بعض الناس اعتبروه « بقعة » يجب أن تزال من هذا المكان وبعض الذين يكثرون التردد على هذا الملهى الليلى ، اعتبروه (علامة) أوْ أحد ملامح المكان من الخارج ؛ فهذا الرجل مثل الشامة على الوجه الحسن ، والشامة وحدها لا تزيد على أن تكون نقطة سوداء لكنها مع الخد تكون منظرا لا تشبع العين منه .

وهذا الرجل المسن الذى يجلس على كرسى من الخيزران اختصرت أرجله الأربع إلى نصف طولها بمنشار — يحتضن عوده ويلبس سترة سوداء ورأسه بلا طربوش وعلى عينيه نظارة فى لون السترة . ومع هذا الرجل آخران فى منتصف العمر يكملان المنظر خارج الملهى كإحدى اللافتات الثلاث مثل راية ملونة إن فقدت أحد ألوانها فقدت جنسيتها تماما . أحد الرجلين يسند إلى الحائط صندوقا يبيع فيه السجائر والآخر يضع صندوقا زجاجيا مليئا بالسودانى المقشور وفى الشتاء يشوى إلى جانبه حبات « أبو فروة » .

وترتفع فى هذه المنطقة رائحة الأكل والتبغ والألحان عندما يتقدم المساء ويبدأ رواد الملهى فى التوافد إليه .

الثلاثة مثل راية ملونة . إن فقدت أحد ألوانها فقدت جنسيتها

كان أكثرهم دخْلا بائع السجائر ويليه فى الدخل بائع السودانى ، أما العازف فكان أقلهم دخلا لكنه كان فى حقيقة الأمر أكثرهم حظا باهتمام الناس . كل العيون تراه وإن كان لا يرى أحدا ولا قلب إلا ويخفق له حتى ولو لم يكن هناك (تعامل) .

وكيف يحدث التعامل ؟ سلعته .. أعنى نغماته تملأ الهواء حول جدران الملهى . نعم .. وقد يأخذها الناس بآذانهم ـــ بل هم يأخذونها حتما ـــ ثم يمضون دون أن يدفعوا الثمن . وهو لا يرى إعجابهم أو حتى رثاءهم لأنه مكفوف ، وربما سمعوه وهم بعيدون عنه .. وسلعته لا يمكن استردادها إذا لم يدفع ثمنها فهى تنتشر كالهواء دون إرادته .

أما السجائر وأبو فروة فهما سلعتان يتحكم فيهما صاحبهما بكل قواه ..

لذلك فقد كان رواد الملهى يرون الانكسار على وجه العازف . وكثيرا ما ربطوا بينه وبين بعض العازفين الذين سمعوهم فى داخِل الملهى هؤلاء اللابسون ملابس السهرة . بياض قمصانهم فى نصاعة لا توصف كأنه مصدر البياض فى كل شىء أبيض ، وسواد سترتهم وأحذيتهم لا يوصف كأنه أيضا مصدر السواد لكل شىء أسود . رءوسهم مرفوعة إلى فوق وهم يعزفون وشعورهم مدهونة وعيونهم تحملق فى شىء واضح .. مكتوب .. « نوتة » . أما هذا الرجل المكفوف فيعزف وهو منحن وشعره أشعث

لا يلمع . وذقنه غير محلوق . والأهم .. أنه لا ينظر فى شىء . لا مكتوب ولا مشطوب . إنه ينظر فى فراغ مظلم متماوج . ربما رأى فيه بأذنه كلمة رسمت صورة .. لشخص يسخر أو يرثى أو ضحكة مغمغمة تلفها شهقة من امرأة خرجت من الملهى وهى تحلم بالحب غير ملقية بالا إلا لدفء « أبو فروة » فى إحدى ليالى الشتاء الدامع .

غير أنه قد كان فى قلب هذا العازف شىء يعتز به . كان يفاخر به أبدا زميليه العزيزين . زميليه اللذين لم يفترق منهما ولم يفترقا منه منذ أكثر من عشر سنوات ، كان يقول لهما وهو يبتسم :

ــ الفرق بينى وبينكما أننى أعطى أكثر مما آخذ . فليس كل الذين يسمعون عزفى وغنائى يدفعون لى . أما أنتم فإنكم تأخذون أكثر مما تعطون . فأحدكم يبيع الدخان بأغلى من سعره والآخر يبيع السودانى بثمن الفستق أو (أبو فروة) وكأنه يبيع الدفء لقلوب الناس .

ويضحك الزميلان من غروره فى الوقت الذى يكون فيه هو غارقا فى تأملات .. يرى فى الرقعة السوداء التى لا نهاية لها صورة أيديهم الممتدة . أما هو فلا يمد يدا لأحد ، إنه فقط يسمع على حواشى لحنه وغنائه ــ بين فترة وفترة قد تطول وقد تقصر ــ يسمع رنة معدنية مبهمة . سريعة كتحية من مجهول .. وعندئذ يعرف العازف أن يدا طيبة قد أعطته بعض الأجر . نصف قرش أو قرش

بأكمله أضيف إلى النقود فى الطبق الموضوع أمامه على الأرض .

* * *

وقف أمامه الليلة شاب وفتاة . شم من رائحتهما خمرا .. كانا خارجين من الملهى . من فمهما تروح رائحة خمر حقيقية ومن أعطافهما خمر الشباب . كانا ثملين لدرجة معقولة ولكن جو نهاية الليل والبرودة الندية والعطش الذى يحرق بعض أصحاب هذه السن ـــ جعل الشاب يرى فى العزف شيئا جذابا ..

اشتريا سجاير ثم اصطحبا معهما بعضا من (أبو فروة) وأخيرا انتبها إلى العازف ..

كان يدندن .. لم يكن صوته عاليا فى العادة . كان يخشى أن يخدش إحساس أحد . يخافت بالصوت واللحن ليعطى فرصة الاختيار للمتطلع الفضولى أو المخلص فى الاستماع .. وكان يقول شيئا عن الشباب ، وشيئا آخر عن فوات الفرصة كان معنى ما يقول :

« عد يا شبابى .. »

« لأمنح غفلتك الحكمة التى أعرفها الآن »

« تعال .. »

« لتجعل عودى ينطق بفصاحة .. »

« وليصبح حلوا .. »

« كل ما يقوله الليلة وهو يتلعثم .. »
« تعال .. »
قال له الشاب ضاحكا مخمورا :
ــ أوو .. ه !! وكنت قد علمت سيد درويش ومن جاءوا بعد فنا عظيما .. (وضحكت الفتاة نصف ضحكة ذيلتها بشهقة طويلة) . واستطرد الشاب ليدخل مزيدا من المسرة إلى قلبها :
ــ لو ضاع منك هذا العود .. لـ ..
سكت العازف . وانبرى للشاب فجأة بائع السجاير كأنه خرج من قمقم .. طويلا بادى الطول . جلبابه مفتوح الصدر بصرف النظر عن حالة الجو . وأمسك كتف الشاب وقال له بلهجة حاسمة :
ــ هل طلب هذا الرجل منك شيئا ؟!
رأى الشاب والفتاة بوادر الشر فى عين المتكلم . فهز هو رأسه نفيا وفتحت صديقته عينيها . فاستطرد الشاب بصوته الحاسم المرتفع :
ــ وهل أعطيته أنت شيئا ؟!
فهز رأسه نفيا ولم يرد ، وبقيت الفتاة على حالها من التوجس والانتظار والخوف . فاستطرد الشاب من جديد بصوته الحاسم المرتفع أيضا :
ــ وهل تظن أنه يبيت جائعا إذا لم تكن أنت على قيد الحياة ؟!

فهتف الشاب مؤكدا بيقين من يعود إلى الإيمان إن كان فى خطر :

ــ لا .. والله العظيم !!

فعاد الشاب الآخر يهز كتفه ويقول :

ــ كان على باب جامع الشيخ رفعت رجل آخر كفيف يقرأ القرآن .. وكان المصلون يستمعون إليه على باب الجامع ويعطونه ... هل تفهم ؟!

تهيج المخمور وأخذ يموء كالهر :

ــ فهمت .. ف .. هيمت .. آه ..

فتركه الشاب ليمضى إلى شأنه . وفى غمار هذه الحوادث الصغيرة سمع العازف المكفوف صوتا ليس له رنين .. فى خفة جناح فراشة . فاحت منه رائحة عطر ... فى أنفه وأذنه . وفى العالم اللجىّ الأسود الواقع أمام عينيه رأى ما يشبه الشياطين وعند ذلك نادى بائع السجاير وكان الشاب والفتاة قد بدآ فى التحرك منذ وهلة صغيرة وقال العازف :

ــ حسين .. انظر بسرعة ماذا زاد فى الطبق أمامى ..

ــ ورقة بعشرة قروش ..

ــ الحقهما بها . فيها رائحة عطر المرأة التى معه . لن ألمسها .. وفيها رائحة أخرى .. اجر بسرعة يا حسين فإنى أسمع صوته وهو يطلب (تاكسى) ... من أجل كرامتنا نحن الثلاثة ..

وفعل الشاب ما أمره به الرجل ..

* * *

ليس حتما أن يكون ما قد وقع فى الليلة السابقة من حوادث صغيرة للعازف وصاحبيه سببا فيما وقع فى الليلة التالية ..

ففى نفس هذه الليلة الباردة نقص الثلاثة واحدا .. غاب العازف عن المكان . لا تفوح إلا رائحة السجاير المحترقة و .. (أبو فروة) المشوى . ومكان العازف خال تحت اللافتة الكبيرة التى تحمل صورة عارية لبرامج الليلة . وعين صاحبة الصورة تحملق إلي المكان الخالى بنظرة مخمورة كأنها تسترد وعيها . والرجلان الآخران يشعران بنقص محسوس . ليس فى الروح وحدها . بل إحساس من يلبس ثوبا مفردا على جسمه ويمشى به للمرة الأولى .. شبه عرى .. أيضا .. وبرودة تكاد تكون داخلية أكثر مما يحدث من لفح الريح .

وأخذا يرقبان عيون رواد الملهى . كل من يشترى السجاير أو السودانى أو (أبو فروة) يسأل . قال شاب رزين :

ـــ الله .. أين صاحبكما ؟! نقص المكان شيئا مهما .

ونظر صاحباه فى صمت :.

وقالت امرأة لعوب :

ـــ ياه !!.. أين هو ؟!.. هل دخل هنا ؟! (وأشارت إلى الصورة فى اللوحة الإعلانية) . ونظر صاحباه فى صمت .

لكبن رجلا ثالثا ضعيف البصر أخذ يحملق فى المكان الخالى وهو مطأطىء رأسه كأنه يبحث عن قطعة نقود سقطت منه ونظر لصاحبى العازف ولم يسأل

* * *

ولم يمض وقت طويل . أسبوع واحد . ثم رأى رواد الملهى منظرا فريدا. منظرا كان هو العازف نفسه غير أنه ذو تأثير مضاعف ..

كرسيه الذى اختصرت أرجله الأربع إلى النصف بمنشار موضوع فى مكانه المألوف تحت لوحة الإعلانات ، وعلى ظهر الكرسى سترة العازف السوداء ، وعلى الكرسى نفسه حيث كان يجلس (عوده) المعروف . العتيق الكابي اللون . وفوق العود صورة للعازف استندت إلى ظهر الكرسى ، وأمام الكرسى(الطبق) . وامرأة مسنَّة متشحة بالسواد تجلس على بعد . يفصل بينها وبين (تركة) زوجها صندوق السجاير وصندوق السودانى للصديقين .

كل رواد الملهى عرفوا القصة ومدوا أيديهم إلى الطبق . لكن هذا الوضع لم يطل أكثر من بضع ليال ..

اختفت سترة العازف وصورته من فوق الكرسي القصير . ولم يلبث رواد الملهى أن رأوا مكان الصورة والسترة امرأة الرجل .. وارثة التركة .. غير أنها كانت تعزف فى صمت ، وبلا غناء . مطرقة دائما . لا ترفع عينيها نحو أحد . ولا تمد يدها . وكان عزفها أمهر بكثير من عزف زوجها .. وتساءل الناس :

ــ هل كان الرجل قد علمها العزف قبل أن يموت ؟!

وقليل منهم كان يعرف الجواب الواضح ، فقد علمها أستاذ كبير . مشهور جدا ويعرفه كل الناس .. اسمه الألم .

الامبراطور المخلوع

ــ « من يصدق أننى كنت أسكن هذا القلب ؟! » .

وكان هذا القلب موضوعا أمامها على منضدة بجانب السرير .. بغير خفقات .. مغمورا فى سائل طبى يحفظه من التلف . بعد أن كان هو صاحب السلطان المطلق على جسم هذا الرجل الذى أحبته والذى تراه الآن ممددا فى فراشه مغمض العينين وتسمع أنفاسه وترى تورد خديه . ولا بد أنه الآن يحلم بشىء ما . ترى بماذا يحلم بعد أن أصبح فى صدره قلب فتاة. ؟!

وتبسمت له . ونسيت نظراتها الهائمة حوله . إنه لم يكلمها حتى الآن لأنها لم تستطع أن تأتى إليه إلا اليوم .. قطعت فى القطار إليه مسافة لا تقل عن ثلاثمائة من الكيلومترات . فى نفس القطار الذى تعارفا فى إحدى مقاصيره. ومنذ ذلك اليوم خفق قلبه هذا الذى تراه . خفق بحبها عنيفا . وسمعت خفقه بأذنها وقال لها يومئذ : « هل تسمعين .. نعم تسمعين .. أنت قانون الحركة فيه . ويوم تتخلين عنه فإنه سيصبح مواتا » .

وها هو ذا أمامها مثل إمبراطور مخلوع . كان يأمر فصمت .. وكم قال لها صاحبه : « إن قلبه هذا شديد التنبؤ بالغيب . فهو مثلا يحس أنها ستخلف ميعاده وأنها ستتزوج رجلا غيره وأنه سيعيش بعدها فى تعاسة » . وقال لها :

« إن قلبه كان يأمره بأن يخرج فى الظلام لكى يقف على مقربة من بابها حيث يكون الليل أشد حلوكة تحت إحدى العرائش المزروعة هناك والتى تعشش فيها طيور تزقزق فى صمت . » .

ونظرت إلى أنفاسه المنتظمة وتساءلت عن أحلامه . ثم نظرت إلى قلبه المغموس فى السائل وفتشت عن موضع الأحلام فيه . ولم تدر لماذا وقعت عينها على مرآة معلقة فى الحوض فى الحجرة . لم تكن المرآة كبيرة لكنها عكست من خلال النافذة أمامها ـــ جزءا كبيرا من حديقة المستشفى وبرجا عاليا لإحدى الكنائس . وكل شيء أمامها في المرآة يكاد يلمس والأغصان تتحرك إذا لمسها الهواء . وتصورت أن المرآة قد كسرت . ثم سألت نفسها : هل تبقى الصورة ؟! وعندئذ وقع نظرها على القلب .. ذلك الإمبراطور المخلوع الذى كف عن تسيير عالمه والسيطرة عليه . عالمه الممدد الآن في السرير تحت حكم قلب آخر .. ذلك الإمبراطور حين خلعه الأطباء لم يتيحوا له أن يهرب بشيء خارج الحدود . بدليل أن عالمه هذا .. ذلك الجسم .. لم يمت . لأنه .. إما أن يأخذ كل شيء وإما أن يترك كل شيء ..

لقد ترك ذكرياته فى جميع الخلايا ومضى . فحبيبها الممدد الآن فى الفراش مزرعة عجيبة . لم يعد هو هو .. إنسانا عاديا .. بل أصبح صدره مثل أصيص نقلت إليه شجيرة بجذورها بعد أن خلعت منه شجيرة . لعله الآن يحس بأن شيئا غريبا يجثم على صدره ... كابوس ينبض . ومع كل نبضة تتساءل مناطق الحس

فى جسمه عن الخبر ، وشيئا فشيئا يتم التفاهم وتندمج الشجيرة فى أرض الأصيص الجديدة . يندمج القلب فى الصدر . وتستجيب مراكز الجسم كله لأوامر الإمبراطور الشاب .

وتبسمت الفتاة .. ونظرت إلى الإمبراطور القديم الهرم المغموس فى السائل الطبى . لقد لعبت به كثيرا . جعلته يخفق فى الدقيقة الواحدة ضعف خفقاته العادية . كانت نظرتها تجعله يجفل مثل طائر مذعور وأحيانا يستنيم لها فى هدوء كفرخ طير فرشت له أمه الزغب . وحتى وهو فى أشد ساعات مرضه ما كان يعجز عن التعبير . لأنها ساكنة فيه .

وها هى ذى الآن تنظر إليه .. ولا شىء يحدث ..

وكانت أيضا ترى نفسها فى حدقتى عينيه ، هاتان اللتان أسبل عليهما أجفانه الآن راقدا وهو منهك . يتنفس بقلب آخر . وكان يقول لها عندما يراها تحدق فى عينيه : « ماذا ترين فيهما ؟ » فتقول : « إننى أرى نفسى .. صورتى فى كل عين .. وأرى قلبك .. قلبك فى عينيك .. لا .. بل قلوبنا فى عيوننا ... ولو لم تكن قلوبنا فى عيوننا لضل الناس بعضهم عن بعض . فعيوننا هى النوافذ التى نرى منها ما فى الصدور بدليل أننا نطرق أو نغمض إذا أردنا أن نخبىء ما فى صدورنا ... » .

ونظرت إليه تحت ملاءة بيضاء فى لون السوسن . كان جبينه مقطبا نوعا ما وإجدى كفيه مقفلة على هيئة قبضة . منظر يدل على الإصرار حتى خيل إليها أنه على وشك أن ينهض من فراشه

ونظرت إليه تحت ملاءة بيضاء فى لون السوسن

ليجرى ثم يصعد سلما لعمارة ارتفاعها عشرة طوابق . وبعد ذلك بدقيقتين خيل إليها أن كل شيء فيه قد تراخى فى همود من يريد أن ينام نوما أبديا . ولم يلبث أن عادت إليه حالة التعادل وبدا منظره منظر رجل نائم . ولا شيء أكثر من ذلك .

ثم قالت فى نفسها : فى اللحظة التى سيفتح فيها عينيه سأعرف كل شيء .. ومن خلال عينيه الزرقاوين سأرى ما بداخل صدره كما كنت أفعل من قبل . فليس هذا القلب المغموس فى السائل أكثر من مرآة كسرت وإذا وضعت مكانها مرآة عاد المنظر كما كان طبيعيا حيا .

* * *

وانفتحت عيناه لأول مرة مثل نافذتين تطلان على القلب الجديد . وسجلت مشاعر الرجل — لأول مرة فى وضعه الطارىء — إحدى لمسات الحب . وكما تضىء السماء بنور القمر أضاء وجهه فى الفراش . وبحركة آلية صرفة لمس ذقنه المحلوق وهو يبتسم . ثم همس باسمها .. وأغمض عينيه لينام مرة أخرى والابتسامة على شفتيه تتلاشى شيئا فشيئا . وكانت تحمل من المودة كل ما حملته الابتسامات القديمة ولولا منغصات من ألم جسمانى يعانيه حتى الآن لكانت أكثر إشراقا . ثم رأت مخايل حلم سعيد حول أهدابه المسبلة بعد أن نطق باسمها وأغمض عينيه . وعندئذ لاحت منها التفاتة إلى قلبه القديم المنقوع فى السائل الطبى . وتغيرت نظرتها إليه .. رأت الحب

ادق وأشمل . ليس القلب (كعضو) وحده مسكنا له ولكن الإنسان كله كبنيان . والطبيعة أيضا مضافة إليه .. بدليل أن المعدة تمرض بسبب الحب فتطرد الطعام .. والجسم كله يمرض . والطبيعة أيضا .. يفقد الشجر خضرته والبحر رونقه والماس بريقه ..

وعندئذ نهضت لتقف أمام المرآة لتسوى شعرها . وفجأة رأت محاسنها كما تراها امرأة غريبة منفصلة عنها . وفى المرآة أغصان الشجر تتلاعب وبرج الكنيسة ينطح السماء . وبدا لها منظرها أجمل مما رأت فعلا .. عندما رأت الإنسان فى إطار الطبيعة . وهنا أدركت أن كل شيء فى أجسامنا إن هو إلا قطعة من هذه الطبيعة . فنحن من الأرض وإلى الأرض . حتى حبات عيوننا أصلها من طين .. وما الطين إلا الأرض .. وما الأرض إلا مجموعة العناصر التى تتكون منها أجسامنا ..

* * *

وعاد الرجل ففتح عينيه مرة أخرى وقال فى هذه المرة كلمتين :

« سوزان !!.. أنت هنا ؟! » .

ووضع يده على صدره وأغمض عينيه . كأنه يشير إلى قلبه .

كان صوته منخفضا جدا .. غليظا جدا .. كشيء مشروخ . ولم تدر لماذا أحست فيه نبض رجولة . وذكرت فجأة أن فى صدره قلب فتاة . وعندئذ تبسمت . وذهبت إلى النافذة حيث أطلت

على الحديقة ، وهى تتصفح جرائد اليوم التى لم يكن لها من حديث إلا هذا الحدث .. اعتبار جسم الإنسان بقدرة العلم مجموعة من أجزاء . مثل السيارة والطيارة ، لا تعتبر حياتها منتهية إذا فسدت منها قطعة .. حتى ولو كانت المحرك .. ولو كانت القلب !!

ورأت فى الحديقة أمامها امرأة يتبعها كلب . ثم عربة محملة بلحم الخنازير . ثم تمثالا لأحد نوابغ الطب فى عصر مضى . كل هذا فى إطار واحد تحت عينيها الحائرتين وأمام عقلها الملىء بالتساؤلات .

وعندئذ تذكرت ما قاله الأطباء : من أن أنسب القلوب عملا فى صدر الإنسان إذا ما غير قلبه .. هو قلب الخنزير .

وجمح خيالها فتصورت رجلا وضعوا له قلب خنزير ومخ عبقرى كذلك النابغة الماثل فى الحديقة تمثاله . فكيف يتعاونان معا ؟!

ثم تصورت امرأة وضعوا لها قلب قردة وعيون غزال فماذا تصنع ؟.. إنها ستقطع الطريق على المارة بنظراتها ومحاكاتها !.

ثم تصورت قلوب القديسين حين تنقل إلى صدور الطغاة فى التاريخ وقلوب الشجعان حين تنقل إلى صدور الأذكياء الجبناء . وقلوب مشاهير المحبين فى العالم حين تنقل إلى صدور مجرمى الحروب .

* * *

وعندئذ دخل أحد الأطباء وحياها :

ـــ مرحبا سوزان .. لقد كان يسأل عنك ..

ـــ قبل العملية ؟!

ـــ نعم ..

ـــ المهم ما بعده يا دكتور ؟!.

ونظرت إليه ففهم ما تعنى .. فتبسم وقال :

ـــ هل تعرفين القيثارة يا سيدتى ؟

ـــ نعم .. وأعزف عليها . وطالما عزفت عليها له فى ليالى القمر ..

فزادت ابتسامته حتى تحولت ضحكة :

ـــ المهم أن تعرفى أن الإنسان مثل القيثارة . فإذا كان حيا كان قيثارة وأنغاما ، وإن كان ميتا كان قيثارة بلا أنغام ، وربما بلا أوتار فذلك لا يهم إذ أنه لا قيمة لوتر لا يعزف .

... الأنغام يا سيدتى تأتى بفعل فاعل .. شيء من الخارج لكنه مكمل للإنسان ، والإنسان ـــ حتى وهو نائم ـــ قيثارة تعزف لأنه يعمل عملا ما ويفكر فكرا ما فى أحلامه . بل إنه يتكلم وهو تحت تأثير البنج . لذلك فأنا أعتقد أن الطبيعة التى حولنا إن هى إلا امتداد للإنسان . وأنا أقصد بالطبيعة المجتمع والأرض والسماء وما يراه الإنسان وما لا يراه . كل هذا امتداد له . ولذلك يجب أن تعلمى أن لكل إنسان قلبين : قلب بمعنى عضو وقلب بمعنى أوسع من ذلك ..

تصورى دائما القيثارة بأنغامها . فهذا هو الإنسان . فلا يهم إذن إن وضعنا فى صدره قلب امرأة أو قلب رجل أو قلب خنزير ؛ لأننا لو ركبنا له عينى خصان لرأى الدنيا من جديد بكل امتداداته .. فهو ليس داخل أجهزته طبيا . الإنسان كائن أكثر امتدادا من الجهاز الهضمى والتنفسى والعصبى وغيرها .. إذن .. فاطمئنى ..

قالت سوزان فى ابتسامة مشرقة بالأمل :

ـ إذن فأنا ساكنة القلب الجديد ؟!

فرد مداعبا :

ـ نعم .. وقد تأكدنا من ذلك عند عملية النقل فقد شممنا العطر الذى يفوح منك وكأنه يفوح من دمه ..

الأعواد الخضراء

يد أبى توقظنى من النوم فى ليلة خريف باردة . رأيت كل شىء من حولى وأنا أفرك عينى بيدى يدل على أنه قد سحب قهرا من الهجوع .. حتى مصباح الجاز الذى أعادت أمى إشعاله . وكان أبى يرتدى ملابس الحقل فى عجلة ملهوفة ويسأل وهو يلبس عن بندقيته التى يصطحبها عادة إذا ما خرج أثناء الليل ..

كان المنظر بالنسبة إلىَّ لا يزال حلما .. لماذا أوقظ فى مثل هذه الساعة ؟! ولماذا يبدو الاهتمام على أبى وأمى هكذا ؟! ثم هو يطلب بندقيته وقلَّما كنت أراه يحملها . فسألت نفسى : « هل أبى خائف ؟! » وكان الجواب : « نعم » ؛ لأن كل شىء فيه يدل على الخوف . وعند ذلك وبطريقة تلقائية أحسست أن الخوف يملأ كيانى لا لشىء إلا لأنى رأيت أبى خائفا .

ولفَّت أمى على رأسى « كوفية » من القطن لتؤمننى برد الليل وفعل أبى كذلك . ثم أمسكنى فى يده .. كفى فى كفه . وأحسست بضغط كفه على كفى بعنف وكأنما كان ذلك إيذانا بالسير إلى الحقل . فسألت أبى بصوت ملهوف :

ــ إلى أين ؟..

فضغط على يدى كأن فيها فمى ، وهمس :

ــ هس ..

وقابلنا الليل عند مدخل الحارة ، ليل نوفمبر في الريف . بعباءته السوداء الندية . وهمسه فى أوراق الشجر وحقول الذرة . والمياه فيه تعكس السماء فى قدرة تجعل الضفادع والنجوم جنبا إلى جنب .. ووحوحت ..

فسأل أبى فى همس :

ــ أنت بردان ؟!

قلت :

ــ نعم ..

وكنت فى الحقيقة أوحوح من الخوف ..

ولم يستأنف أبى الحديث معى .. تركنى نهبا لوساوس لا تحصى وأنا الصبى الذى لم يتجاوز السادسة عشرة من العمر ..

كان سلاحه تحت إبطه وخطاه سريعة واسعة . أحسست أنه يريد أن يطوى الطريق والزمن . وخطاى القصيرة لا تستطيع أن تدرك خطاه لذلك وجدتنى مضطرا إلى أن أهرول لكى أسير معه جنبا لجنب ..

والطريق الذى نمشى عليه ضيق مفروش بالنجيل . لم تستطع المواشى السائبة أن تعريه من ثوبه الكثيف الأخضر . وهو لذلك يكتم وقع الأقدام .. أعرفه فى النهار . بين حقلين مزروعين بالذرة وعلى جانبيه أعواد ناضجة والمياه فى قناتين ضيقتين على حافتيه . والشمس حين تبعث أشعتها عليه متخللة السحاب الأبيض تبدو

مثل طفل سماوى يلهو على الأرض ثم ينسحب ..

لكن ما باله بالليل هكذا ؟!.. إنه غير الذى أعرفه بالنهار . إنه مثل أبى .. ليس هو الرجل الذى أراه بالحقل تحت الشمس : يسيل العرق على صدره ويبرق على زنديه ووجهه . إنه رجل آخر .. غريب ..

* * *

وفجأة وقف أبى ..

خرخشت أوراق الذرة من أمامنا . ورأينا شبحا يعبر من الشمال إلى الجنوب . عبر الطريق الضيق والقنوات ...

وتأهب أبى .. ولذت به .. فدفعنى عنه . لكن كل شىء عاد إلى ما كان عليه بسرعة كأن الليل قد نطق بكلمة واحدة وسكت عائدا إلى الصمت فلم يكن ذلك الشبح الذى عبر سوى أحد الثعالب ..

وقال أبى يهمس ليطمئننى : ثعلب لا خوف منه .: عليه لعنة الله ..

وكنت أعرف أن الثعلب لا يفترس الرجال بل يخافهم ويلجأ إلى الحيلة لكننا كنا فى حالة ترقب فلم تكن الحركات فى وزنها الطبيعى ..

* * *

ورأينا النجوم مرة أخرى

وفجأة رأيت أبي يلطمني على وجهي وهو يقول لي :

ـــ هل جننت ؟!

وفكرت في سؤاله فعلا وكدت أقول : نعم إنني جننت . فما الذي حدث ؟! سمعت صوتا يرتفع فجأة وهو يغني : « يا ليل يا عين » ..

ولم تكتب لأنغامه أن تتم . لأن هذا الصوت كان صادرا مني ولأن أبي أدركني فأسكتني بأن لطمني .

وعجبت لماذا أغني .. وما لبثت أن وجدت الجواب : فقد غنيت حقا لليل غناء الوثنيين الذين يرقصون للأخطار . ففي اللحظة التي نطقت فيها بلا وعي بغنائي كان الليل قد بسط عليَّ سلطانه بكل ما فيه من صمم وبكم وفعلت ظلمته في نفسي ما يفعله القمر في مياه البحر .

على أن مخاوفي قد قلَّت . وشيئا فشيئا أحسست أن الخطر شيء يمكن ملاقاته ما دامت النفس قد وطنت على ذلك . بدليل أن وطأة البرد قد خف ملمسها على جسمي بعد أن غادرت الدفء بربع ساعة . وكان أبي « يزمجر » . كنت أسمع صوته الحبيس في صدره ولست أدري لماذا . خيل إليَّ أن أبي يكتم نداء أو تهليلا . وكان عوده القصير وهو يمشي في الظلام إلى جانبي أشبه بالقدر المتسلل . وأخيرا ضجرت فعدت أسأله في صبر نافد :

ـــ إلى أين يا أبي ؟

فأجاب وهو في حالة مثل حالتي :

ـــ إلى حقلنا الجنوبي ... إلى أي مكان تظن أننا ذاهبون الآن يا غبي ؟!..

وابتلعت ريقي . وتلاشت آخر عباراته في ضوضاء الحقول والهواء . وعاد السكون حتى كدت أسمع طنينه في أذني تحت الكوفية .

وكنا ساعتئذ قد وصلنا إلى طريق فرعي آخر . كعادة أهل الريف تجنبا للأخطار فهم يتحرون أن يصلوا إلى غايتهم في الليل من الطرق الجانبية أو من غير طرق . يمشون في الحقول التي ربما كانت مظلمة بالزرع وهم يعرفون طريقهم كالملاحين في البحر . بين عيني كل منهم (بوصلة) وفي قلب كل منهم حذر ..

وكان أبي جديرا بهذا الموقف في هذه الليلة . فقد كان خائفا من أن يكون قد استدرج لكمين . لذلك لطمني عندما غنيت .

* * *

ورأينا السماء مرة أخرى بعدما قطعنا طريقنا هذا .. حملقت في النجوم بطريقة الظمآن ينظر إلى الماء فقد كنت مشتاقا إلى الجو المكشوف ..

ورأيت أبي أقل طمأنينة فقد كان يكثر من التلفت ويسرع في خطاه . وبعد ذلك دلفنا إلى حقل عرفت على الرغم من الظلام

أنه حقلنا وكنا نمشى فيه من ناحية ليس عليها ترعة متجهين إلى الناحية الأخرى حيث تقع الترعة التى تسقى ذلك الحقل ..

وبعد أن قطعنا عدة أمتار داخل أرضنا قال لى أبى وصوته يحمل مزيجا عجيبا من النبرات . فيها الحماسة والاندفاع والتوتر والرضا بما سيقع مقدما . قال أبى :

ـ اسمع .. قد يحدث أن نجد ناسا عند رأس حقلنا هناك عند الترعة أو على مقربة منها . وقد تحدث أشياء لا تخطر على بالك . وكل ما يهم عمله هو أنه إذا حدث ما لم يخطر على بالك أن تسد فتحة الماء إن كانت مفتوحة حتى لا تغرق الأرض .

وتنهد أبى .. وأمرنى أن أجلس القرفصاء وفعل مثلى ثم بدأنا نقطع الطريق إلى نهاية الحقل بهذه الطريقة . ففهمت أن أبى لا يريد أن يكون هدفا ولا أن تراه عين .

وهمس لى : إن رأينا ماء يلمع على أرض الحقل فمعنى ذلك أنهم أطلقوا الماء ليتلفوا الزرع النابت وأخرج أنا إليهم . إذن فلتحجز أنت الماء عن الأرض واتركنى أنا أتصرف إذا حدث شيء آخر ، وإذا لم تر ماء يلمع على أرض الحقل كان هناك خطر واحد هو خطر خروجى إليهم فى مثل هذه الساعة وهذا أقل ضررا ..

قلت وأنا أزحف على أرض حقلى : أبى يرى كل شيء حوله أعظم قيمة منه شخصيا وإلا ما خرج من دفء الحجرة مخاطرا

هكذا . ثم سألت نفسي : لماذا لم يستعن بأحد إخوته قبل أن يخرج .. هل يراني أهلا لتحمل المسئولية ؟!

* * *

همس أبى بفرحة شديدة :

ـــ ولد .. ولد .. ليس هنا ماء يلمع . إنها خدعة .. فتحة الماء مقفلة والزرع سليم .. الأرض سوداء فى لون أرض الجيران .

وسكت كعادة أهل الريف وتلفت . ونظر إلى السماء وشرع بندقيته وأطلق فى الليل طلقة مزقت سكونه . كأن أبى يريد أن يقول : « نحن هنا .. » .

وانتظرنا . كانت آذاننا شديدة التوقع لأن تسمع طلقة أخرى من مكان ما ردًّا على طلقة أبى . وكانت الثوانى تمر فى ثقل لا يوصف كأن لها أجنحة وطنينا ووزنا مثل وزن الجبال . وجلس أبى بعد ذلك تماما على الأرض ورأيته يداعب بيده المضطربة أعواد الزرع النامية كأنه يتحسس أطفالا نجوا من الغرق وبدت على وجوههم فرحة النجاة مع بقية من دموع الخوف .

ولست أدرى لماذا أحسست أن أبى قريب إلى قلبى جدا فى هذه الساعة . شعرت كأنه انتصر على كل شىء حتى على ظلام الليل وأخذت شيئا فشيئا أشعر بشعور جديد . شعور غير الخائف أو إحساس القادرين على عمل أى شىء يطلب منهم . وأن هذه العصا القصيرة التى أحملها ليست أقل قوة من رصاص البندقية .

لقد بعث أبي إلى قلبي شيئا فشيئا إحساسا بالرجولة والقدرة على حمل ما هو أقوى من قواى .

* * *

ولم نلبث أن أخذنا طريقنا عائدين إلى الدار ولكن ليس من نفس الطريق الذى سلكناه من قبل . وبدا الليل أقل ضراوة والطريق أقصر مما كان قبلا .

وعند باب الدار سمعت أمى وقع خطواتنا ففتحت فى صمت ذلك الباب الذى كانت واقفة وراءه منذ خروجنا . وكان قلبها يخفق . بدا ذلك من لهجة كلامها المتعثرة ؛ لأنها حين سمعت طلقة البندقية لم تدر من أى يد أطلقت . ولكن سيادة الصمت بعد الطلقة الوحيدة جعلتها ترجح أنها من يد أبى خصوصا لأنها كانت عالية .. أى أن هدفها كان إعلان الحراسة .

ودخلنا كلنا . وجلس أبى يسب ويشتم ذلك الذى أخرجه فى مثل هذه الساعة . كانت نظرته للأمر سليمة . فقد وقع بينه منذ يوم واحد شجار مع أحد الجيران فى الحقل وفى هذه الليلة أرسل من دق على باب دارنا دقات مستعجلة فنهض أبى وأمى فى عجلة وذعر فلما سألوا عن الطارق قال بصوت غير واضح :

ـــ أنا محمد .. حقلكم الجنوبى أطلق عليه الماء ليغرق ..

ولما فتح الباب لم يجدوا أحدا إلا الظلام والسكون .. ولم يعرفوا شخصية المنادى . ثم ما أكثر اسم محمد فى القرية ..

وكان العمل يبدو وكأنه استدراج لكنه أيضا كان امتحانا لرجولة أبى . فقد كان موقنا أن الذى نادى عليهم فى مثل هذه الساعة يكمن الآن فى مكان ما ليرى ما سيحدث ..

وجعل أبى وأمى يفكران : « إذا كان ما قيل صحيحا فإن الحقل سيغرق ، وإذا كان ما قيل غير صحيح فإن الكرامة ستغرق » .

وعند ذلك أيقظانى وخرجت أنا وأبى فى الرحلة التى مرت بنا . لكننا عندما عدنا كنا أثقل وزنا وأعظم قيمة . ولم يلبث أبى أن أخرج من جيبه عودا أخضر قدمه لأمى فى نور المصباح المتعب قائلا لها :

ـــ انظرى .. لقد أصبحت البطاطس فى هذا الطول .. كنت خائفا عليها أن تغرق ..

وضحك فى سعادة قبطان نجا كل ركابه من عاصفة .

* * *

عند شروق الشمس تماما كنت واقفا على رأس ذلك الحقل . كانت خيوطها الذهبية تنساب بين الخطوط وفوق الخضرة كذهب قد صهر حديثا . والترعة من ورائى مليئة بالماء وفتحة الرى محكمة تماما . وكنت أتخيل حوادث البارحة . وهمساتنا وطلقات الرصاص والأشباح التى هرولت فى كل فج .. كنت أتخيل كل ذلك وأحاول أن أرى له أثرا . لكن نفسى لم تجد شيئا من ذلك .

كأن النهار قد مسح بيده البيضاء على تلك الحوادث ففركت عيني بكفى وأنا فى تمام اليقظة وأنا أقول « لعلّى فى حلم » . وفجأة وجدتنى أغنى فى النهار تلك الأغنية التى قطعها أبى علىّ ليلة البارحة ونحن فى الطريق الضيق وجدتنى أقول والشمس طالعة :
« يا ليل .. يا ليل .. » !!

الغد الباسم

كان يحدثنى كثيرا عن شىء لا أعرف اسمه وكنت أحاول أن أشاركه الحديث فيه بطريقة غلام يعتمد على خياله وحده لأنه ليس هناك ظل من الحقيقة يربطنى بما يصفه لى .

وفى الفترة التى استبد به هذا الخاطر الخبيث كنت خائفا من لقائه . فعندما دق جرس الحصة الأخيرة تلكأتِ فى الفصل أخيرا حتى خرج هو منه ثم لذت بنهاية حديقة المدرسة حيث تنتشر أشجار الرمان ذات الفرو ع اللينة والأوراق الغزيرة وحيث يمكننى أن أتوارى فيها .

ولم يكن معى حقيبة للكتب كالتى يملكها هو ، ذات الجلد الأنيق والأقفال المعدنية التى تشبه الفضة . بل كنت أضع كتبى التى أحاول دائما المحافظة على نظافتها فى كيس من (المشمع) أحمله فى حذر وخجل .. وأنا الآن مختبىء تحت شجرة الرمان حاملا إياه تحت إبطى مشغولا بالنظر إلى تلك الأزهار النارية الحمراء . ورائحة الأرض المروية والخضرة عموما . ونكهة الجرجير الذى تغمر به حديقة المدرسة تملأ الجو من حولى ...

ولم أدر كم من الزمن وقفت لكننى انتبهت فجأة على صوت أبواب تغلق فأدركت لفورى أن العمال فى المدرسة على وشك

أن ينتهوا من أعمالهم فهممت أن أتحرك للخروج ولكنني فوجئت بيد تشدني من ساقي وبضحكة منتصرة يريد صاحبها أن يقول : هأنذا قد عثرت عليك .

وحاولت أن أضحك حتى لا أكشف أمر نفسي . ورأيته هو .. هو نفسه التلميذ الذى حاولت الاختباء منه (حمودة) جالسا على حقيبته الجلدية النفيسة ذات الأقفال الفضية غير مراع رطوبة الأرض من تحتها ولا الأضرار التى تنتج لها من ذلك ..

وعندما انتهى ضحكنا سمعنا أحد العمال يستحثنا على الخروج . وسرنا .. كيس المشمع بكتبى تحت إبطى وحقيبته الجميلة تترنح فى يده .

وكانت دورنا بعيدة عن المدرسة إذ كنا من قرية صغيرة تعداد أهليها لا يسمح لها أن يكون بها مدرسة ولذلك كنا نذهب إلى هذه المدرسة فى القرية الأخرى ..

وكان علينا لأجل أن نصل إلى قريتنا أن نسير فى طرقات ضيقة بين المزارع . فى طريقنا حدائق وحظائر ومخازن زراعية مما يتيح لنا فى بعض الأحيان أن نلعب فى الطريق شيئا ما .

وكنت أتمنى على الله أن يتحدث (حمودة) عن أى شيء أو أن يلعب أى لعبة أثناء سيرنا . لكن .. كنت أدعو الله فى سرّى ألا يعود للحديث عن هذه الأشياء التى يفاخر بها وعن المكان الذى يحتفظون بها فيه وعن أنواعها وألوانها لأننى فى الحقيقة كنت قد

استنفدت كل مدخراتى من الخيال ولم يبق بعد ذلك إلا أن أنكشف .

ورأيت ونحن فى الطريق ــ ما دمت أننى لم أستطع الفرار منه ــ أن خير وسيلة للدفاع عن نفسى فى هذا اليوم هو الهجوم عليه .. على (حمودة) وكان معنى هجومى عليه هو أن أثير همومه ومخاوفه من أشياء أعرفها . وعندئذ .. فإنه سينشغل بهمومه هو عن إثارة همومى .. فقلت له فجأة ونحن فى الطريق :

ــ هل تعلم ؟!

فسأل بلهفة :

ــ بماذا ؟

فقلت له :

ــ عندنا امتحان تجربة فى الحساب غدا . وسنجلس فى الفصل بطريقة مبتكرة فيكون فى المربع الواحد أربعة تلاميذ . اثنان من الصف السادس كل واحد منهما فى زاوية المربع . واثنان من الصف الرابع كل واحد منهما فى الزاويتين الأخريين (وسكت قليلا ثم أردفت) وهى طريقة تضمن سلامة الامتحان.. (وهددت بإصبعى شخصا مجهولا يحاول الغش) .

فسرح حمودة ببصره وأخذ يطوح حقيبة كتبه بسرعة أكثر من سرعة مشينا مما يدل على أنه فى اضطراب . ثم بلع ريقه وعاد يسأل :

ـــ لكن .. متى قال لكم مدرس الحساب هذا الخبر ؟!

فأجبته :

ـــ عندما كنت عند الحكيمة لتسعف لك إصبعك الذى جرحه (الموسى) وأنت تبرى القلم للمرة الثالثة فى حصة واحدة .

فتمتم بكلام لا أعرفه . ثم استمررنا فى سيرنا . حتى إذا ما مررنا على إحدى الحظائر أمسك يدى وأشار إلى حصان واقف بالقرب من بابها وأخذ يشرح لى كيف أن والده عندما يركب مثل هذا الحصان يركب بمهارة ، فقد امتطاه مرة بلا سرج وركض به يسابق الريح ويلعب بالرمح ولم يسقط من فوقه .

ووقفت أسمع . مذهولا نوعا . ومصدقا حينا ، ومكذبا أحيانا .

غير أننى كنت أشعر أنه يتكلم كمن يباهى بشىء لا يملكه هو شخصيا معزّيا نفسه عن فشل منتظر فى امتحان التجربة الذى كنت دائما من المتفوقين فيه .

ولما آن له أن يتم محاضرته عن طريقة أبيه فى ركوب الخيل ؛ هذه الطريقة المبالغ فيها والتى كنت أحس الكذب يملأ حواشيها .

لما أتم محاضرته . استأنفنا سيرنا .. الصمت يظللنا وهدوء الحقول شامل . لكننى كنت قلقا .. كنت قد سئمت مجاراته فى أشياء أجهلها تماما ، وفى طرفة عين قال فجأة وكأنه تذكر شيئا :

ـــ اسمع يا كمال .. هل عندكم (خزنة) فى البيت ؟!

فقل له ببساطة شديدة :

ــ نعم عندنا ..

فسألنى :

ــ وأين تحتفظون بها ؟

فأجبت فى بساطة أبسط :

ــ فوق السطوح !

وعندئذ انفجر حمودة ضاحكا ، ولكى يفتت أعصابى أضاف إلى ضحكاته الحقيقية النابعة من قلبه ضحكات تمثيلية ساعدته على تدفق ضحكاته .. ضحكات جديدة من أعماق صدره حتى ضقت به فلكمته فى كتفه وقد امتلأت عينى بالدموع وسألته :

ــ ما الذى أضحكك فى كلامى ؟.. نعم .. إنها فوق السطوح مثل ما يفعل كل الناس ..

وعندئذ استرد (حمودة) أنفاسه وقال لى وهو يلهث فى هدوء :

ــ حسن .. ماذا تضعون فيها ؟

فسكت ثم أجبت على استحياء :

ــ نضع فيها الـ .. اللبن .. والخبز والمخللات ..

فعاد (حمودة) إلى ما كان فيه . تسلمه ضحكة إلى ضحكة ، ورمى على الأرض بحقيبة الكتب الأنيقة فتلوثت بالتراب وذلك لكى يخلى كفيه ليصفق عجبا ، وظللت واقفا إلى جواره مشدوها خجلا حائرا ، أتمنى أن أعرف سر ذلك العالم البراق

الذى يتحدث عنه ذلك التلميذ الذى لا يعرف شيئا إلا المفاخرة بما عندهم ، وهذه هى الوسيلة التى بها يستطيع أن يعكر صفو المجتهدين مثل المتفوقين ويجعلهم يحسون فى كثير من الأحيان بالخنوع لكننى سارعت وقلت له :

ــ كيف تضحك وأنت ستدخل الامتحان غدا ولا تعرف شيئا عن الربح المركَّب .. ولا حساب الزمن ؟!

فأقبل عليَّ وأمسكنى من كتفى الاثنتين وهزَّنى بعنف . أحسست أنه يضمر لي شرا ، وأن طاقته على الرغم من ضحكاته قد نفدت قبل طاقتى لأننى كنت يومئذ أستمد طاقتى من إحساس حقيقى أما هو فقد كان يستمدها من إحساس زائف .

ثم تركنى وقال لى :

ــ إن (الخزنة) أيها الجاهل مصنوعة من الفولاذ .. وفيها نضع الـ ..

* * *

وتركته وجريت ..

لم أسمح لأذنى أن تسمع شيئا مما سيقول ، كنت قد مللت كلامه وانتهيت من ذلك . نعم . وكنت قد سئمت الحديث عن أشياء لا أعرفها . خيالى عجز فى هذه اللحظة وقبلها بكثير عن مجاراته فى العالم البراق الذى يعرف الكثير عنه .

تركته وجريت فلم يجر ورائى بل وقف ينظر مذهولا ، وأخذ ينادينى باسمى كأنه خائف أن يمشى وحده ولو أنه لا يحب صحبتى بإخلاص . وكنت أحدد موقعه على الطريق بمدى

قوة الصوت على المسافات حتى صار يصل إلىَّ وكأنه صدى وعندئذ أبطأت فى سيرى حتى وصلت إلى الدار .

* * *

دخلت على أمى منهكا لاهثا معفَّر الوجه يبدو علىَّ الذل والانكسار وعندئذ ضربت صدرها ثم سألتنى عن الخبر فل أقل شيئا بل لذت بالصمت ثم عدت فسألتها :

ـــ أين الخزنة التى نملكها يا أمى ؟

فقربت وجهها من وجهى تحملق فى كأنها تريد أن ترى من ملامحي شيئا خفيا ثم سألت فى دهشة :

ـــ آه ..؟! ماذا تقول ؟!.. الخزنة يا بنى فوق السطوح !

فصرخت فيها كالمحموم :

ـــ وماذا تضعون فيها ؟!

فأجابت بصوت بلغ من الخفوت والدهشة إلى حد أنه كاد يصير حلما :

ـــ فيها اللبن والخبز والمخللات .. ماذا بك ؟!

فشددت شعر رأسى وبعثرت الكتب من كيسها المشمع . وعندئذ أخذت أمى ـــ بهدوء متبتل ـــ تجمع الكتب من على الأرض وتقبلها كتابا كتابا وتعيدها إلى مكانها من الكيس . كما يفعل الريفى بالخبز إذا ما سقط منه إلى الأرض وهى فى ذلك كله تستغفر الله . وعندئذ أفقت مما أصابنى وقلت لها فى أسى وهدوء :

ـــ إن حمودة يحدثنى دائما عن أشياء تحرجنى وتقلق خاطرى

المجوهرات .. كل شيء يلمع حتى ولو كان « عقلا »

يا أمى . إنه يحدثنى عن خزنة عندهم ليست مبنية من الطين ومسقوفة بالخشب فوق السطوح بل مصنوعة من الفولاذ ومثبتة فى الحائط ..

فتحت أمى فمها ثم قالت :

ــ ماذا أيضا ؟.. أكمل حديثك .

فقالت :

ــ وهم لا يضعون فيها اللبن والخبز والمخللات يا أمى بل يضعون فيها الـ .. المجوهرات !..

نطقت الكلمة التى طالما عذبنى بها حمودة والتى عجز خيالى عن مجاراته فى أوصافها ومعرفة حدود عالمها . عالمها الذى عرفت شيئا عنه فيما بعد الذى يقبس أنواره من ألوان الطيف . ويجعل المرأة أكثر لينا والرجل أكثر ضعفا.. قلت الكلمة لأمى واسترحت وألقيت الحمل على كاهل أقوى من كاهلى ..

ثم سكت وأطرقت . ولم ترد علىَّ أمى . وساد بيننا صمت . لم أر وجهها لأننى كنت خائفا من النظر إليها .. كنت خائفا أن تكون المجوهرات التى يحدثنى عنها حمودة شيئا يعرفه كل الناس إلا أنا . فخجلت من جهلى . لكن يد أمى امتدت إلى وكأنها توقظنى وقالت لى وعيناها نصف مغمضتين :

ــ اسمع يا بنى .. الذى قاله لك حمودة حق . فهم ناس يملكون هذه الأشياء ..

فقلت لها :

ـــ لكننى لا أعرف المجوهرات هذه ..

قالت ضاحكة :

ـــ أشياء تتحلى بها أمه لكنها ليست ضرورية لكل امرأة . وماذا يضايقك فى ذلك ؟!

قلت متخلصا من بقية أشجانى :

ـــ كلما تفوقت عليه فى علم من العلوم تحدث لى عن مجوهرات أمه ثم سألنى عن مجوهراتك فأروغ ولا أجيب حتى سئمت ..

فقالت أمى فى هدوء وابتسام كأنها ترقينى :

ـــ لا تحزن .. يظهر أنه كان من حقى أن أنبهك . لكن لا بأس : فإذا سألك مرة أخرى عن (الخزنة والمجوهرات) فقل له :

إن عندنا منها لكن أبى وأمى دفناها فى الأرض على بعد بعيد ولن نصل إليها نحن الأبناء أو نعرف ما فيها إلا بعد سنين ... أى عندما نصبح شبانا ..

وإذا ما سألك عن المجوهرات فقل له : إنها كل شىء يلمع حتى ولو كان (عقلا) ، لكن مجوهرات العقول زينة ومنفعة لصاحبها وللناس . أما المجوهرات الأخرى فليست إلا لشخص واحد وقد يكون ضارا .

وقل له : إن (الخبز) أشرف من (الماس) لأن الطريق إلى الخبز مستقيم أما الطريق إلى الماس فربما كان معوجا .

وقل له : بعد بضع سنين نرى من منا أحق بأن يفاخر صاحبه .

هل تبكى ؟!

لا تبك أيها الطفل فالدموع مجوهرات أيضا خصوصا إذا كانت من عيون غالية !

وقبلتنى أمى فأخذت أشهق بالضحك وأحسست أننى صرت رجلا وأنه لا شيء يهزمنى . ما دمت أملك كتبا وعقلا وعزيمة . وأن المستقبل لهذه الأسلحة وليس للمجوهرات .

ووجدتنى أبحث عن كيس المشمع بطريقة بحث الأم عن مكان وليدها حتى إذا ما لمسته يدى أخذته فى حضنى .

* * *

وقد صدقت نبوءة أمى ..

صرنا شبابا وتغير حالنا إلى أحسن . فكأننا عثرنا فى الأرض على الخزنة الموعودة التى كانا قد أودعاها لنا حتى نصير كبارا .

أما حمودة فلم يعد وهو شاب ذلك الغلام ذا الحقيبة الأنيقة ولكن صار ذلك الشاب الرث الهيئة المشتت البال المتحدث دائما عن أمجاد قديمة ..

ليلة شتوية دفيئة

حجرته التى ينام فيها هو وزوجته فى الطرف الأخير من الدار . هنالك فى القسم القبلى . يفصلها عن الباب العمومى لدارهم ساحة كبيرة فيها فرنان وعدة كوانين ومضخة للماء .. ثم دهليز مسقوف طويل يؤدى إلى الباب العمومى . يحمل ذكريات من مخاوف طفولته وكذلك ليلة عرسه أيام كان يقطعه جريا مسترشدا بنور ضئيل يصل إليه من الساحة المكشوفة . ثم ... ليلة رأى زوجته (جميلة) وهى تقطع فيه الخطوات الأولى نحو حياتها وحياته . فانطلقت حولها من أفواه القرويات خمسون زغرودة مثل أنشودة خمسين بلبل .

وها هى ذى (جميلة) متهيئة للنوم الآن فى قميص زاهى اللون .. فى كفيها بقايا حناء وفى أنفاسها روائح لبان معطر . وعلى مقربة منها طفلة شعرها منفوش أسود جففته حرارة الشمس من لعبها تحتهـــــا ' فى النهار غالية عليه جدا لأنها بنته وتحمل اسم أمه أيضا .

وفى حجرة (جميلة) يتعذر على أذن ما أن تسمع طرقة الباب الخارجى اللهم إلا إذا كانت عالية جدا . لكن ذلك لم يكن يهم الزوجين فإن أم الزوج تنام فى حجرة قريبة في نهاية الدهليز فترى كل داخل وتسمع كل طارق..

والليلة شتوية دفيئة .. واليوم فى الدار هو يوم الخميس فالعشاء خبز لين وصينية من السمك فى الفرن الريفى . فبعد المغرب بقليل ملأت هذه الحجرة المعزولة روائح حية شهية بعضها صنعه الطعام وبعضها صنعه الدفء وبعضها صنعته النفس .. وفى البعض الأخير لذة وألم وخوف ..

وكانت جميلة تأكل وتحكى . تتكلم عن أشياء عادية تشغل امرأة فلاح . وزوجها منصت . تجرى أفكاره مع أفكارها تارة وتنفصل عنها تارة أخرى .

وبعد أن انتهى العشاء لبست قميصا زاهى اللون بعد أن أزالت عن نفسها فى مكان آخر روائح الدقيق والطبخ والحَلْب وفاحت من أنفاسها رائحة اللبان العطرى وتركت ضفيرتيها المجدولتين مهملتين حتى النصف فبدت وعلى ظهرها طاقتان من الشعر الأسود الحالك تتحركان على القميص الزاهى كلما مشت جميلة .

إن فى نفسها شيئا تريد أن تعبر عنه . إنها تريد أن تعبر عن حبها وخوفها معا . تحس الآن بأن هذه الحجرة الصامتة تشى لها بضمير المستقبل . حيث قصة حب فى هدوء الجدول وصفاء مائه تمشى جنبا لجنب مع قصة خلاف مثل تنُّور ينطفىء ويفور .

وهى الآن تحس أن زوجها يكابد نفس الإحساس . يحمل حبا وخوفا ويعبر عنها بكلمات عجيبة .

« لقد صنعت لنا عشاء حلوا يا جميلة . كم أود أن أقبِّل يديك

أو أن آكل أصابعك الخمس ..!! هل تضحكين ؟.. إنني لا أمزح .. إنني مشتاق أن أراك بلا أصابع .. كفاك قطعة واحدة مثل عروسة من القطن ..

وتنبعث منه قهقهة عالية كأنما ليريد أن يخرجها من نطاق تأثير ما قال .. لكنه ما يلبث أن ينظر إلى عينيها .. حيث تقع الظلال على سوادهما المكحول . ونور الحجرة ضئيل يأتي من جانب .. وتلوح العينان فى سواد غير محدود من خلال وجهها الأبيض .

وتفكر الزوجة الصغيرة : « ماذا يريد هو أن يقول ؟! إنها تبرهن له عن حبها بكل لغة . ألم يكفه منها أنها استأنست كل كائن فى الدار ؟!.. الأبقار والغنم . لو يرى زوجها لغة عيون هذه الأرواح وهى داخلة عليها فى الحظيرة لتقدم وجبة السهرة .. وقرقرة الدجاج فى الأقفاص .. كل شيء ينمو عندها ويزيد ويتفاهم .. ومنذ شهرها الثانى بعد الزواج تجردت من حلاها الذهبية لتشترى قطعة من الأرض زرعها خضروات أحسن من الذهب .. وحتى الألبان زادت بعد أن دبَّرتها .. ولو أن الأم لم تتخل عن هذا إلا بعد معركة باكية وخصام ووئام .

آه .. لكن .. آه !!..

إنها تحس أنه يضمر شيئا . ندبة صغيرة من الكره تبدو للعين على وجه حبه ولا تقع عليها عيناه إلا والحب فى ذروته .

وهى فى هذه الليلة تراها غير واضحة شيئا ما . وحاولت أن

كانت مثل نبات سقى حديثاً . .

تبعد نفسها عن هذه الخواطر فأخذت تثير ما كانا فيه من جديد حيث قالت له :

ــ لو كنت أستطيع أن أعيش بعيدا عنك بعض أيام ؟!

فتنحنح وسأل :

ــ أين ؟!.. فى بيت أهلك ؟!..

ــ هل تظن أن ذلك ممكن .. أنا أقصد .. أن أدخل أحد المستشفيات لكى أجرى العملية التى أجّلناها .. وعند ذلك نتمكن من أن ..

ــ من أن ؟! من أى شىء ؟!

ضحك من أنفه ونظر إليها وهز رأسه . لم يجب عن سؤالها فورا فقد كان يفكر فى أفكارها . فما الفرق بين بيته وبين أهلها ؟! لا شىء .. بل إنه من المحال إذا ما دب بينهما الخلاف أن تذهب إلى بيت أهلها .. شىء يؤلمها ويؤلمه ولا يترك جرح الخلاف يلتئم ..

وتنهد . ثم ضحك ضحكة عالية . وكانت هى منكمشة على نفسها فى هذه اللحظة مثل قطة بيضاء شديدة التعلق بموطنها على الرغم من أن الناس فيه حتى ولو كانوا أطفالا مشاكسون يسببون لها متاعب .

وبدا للزوج أن يخرج من الحجرة ويعود .. أحس أنه فى حاجة لأن ينظر إلى الخارج .. أحس أنه مشتاق إلى حد العطش ليشم الهواء الطلق . إنه يحس بضيق فى صدره يصاحبه حنين مبهم وقلق

وحب . ويحس بميل لا يقاوم نحو أن يبكيها ويحتضنها .. الاثنان معا ..

فخرج من الحجرة وأغلق وراءه الباب المصمت الثقيل ثم وقف فى ساحة الدار .

كان أول ما فعله أن نظر فى السماء .. فيها سحاب .. رمادى راكد متحد اللون . وليس هناك ثقب يطل منه نجم واحد .

وغمرته لمحة طارئة تغمز كل إنسان فيها يحن إلى أن يجوس خلال المسكن الذى يؤويه . وعندئذ تحرك صوب الحظيرة .. فإذا المواشى راقدة فى سلام ينير مرقدها مصباح قديم عتم السناج زجاجته . حتى الغنم . وبعض المواشى يجتر فى ارتياح وبعضها مسبل الأجفان هاجع . رؤوس ليس فيها « فكر » زمنها فقط هو لحظة الشعور بألم أو لذة .

وقدّم لبعضها علفا احتياطيا لأن الليل طويل ثم خرج . وما كاد يصل إلى ساحة الدار حتى سمع طرقة خفيفة على الباب الخارجى ليس ممكنا أن يسمعها لو أنه كان فى الحجرة هناك . مع جميلة .. وجميلة لم تسمعها مثله الآن ..

وعندئذ وجف قلبه فليس الوقت وقت ضيوف « ترى من هناك ؟! » ..

وظل واقفا عند باب الحظيرة فى الظلام حيث يرى ولا يراه أحد .. وما لبث أن رأى أمه تحمل مصباحا وتهرع إلى الدهليز ثم سمع صرير الباب الخارجى وما لبث أن رأى امرأتين تعودان بالنور

إحداهما أمه والأخرى امرأة يحبها تماما ويعرفها تماما ..

دخلت المرأتان حجرة الأم وأقفل الباب وعاد السكون إلى الدار والليل . لكن الزوج لم يزل فى مكانه يسمع من ذاته ضجيجا عاليا يبدد سكون الروح . ونظر إلى السماء المطموسة ثم خفض رأسه وتنفس فإذا بحرارة أنفاسه تقع على أسفل عنقه فيحسها مثلما يحس الخد الدموع .

وبحث عن ريقه ثم ابتلعه . وأتاه وهو فى مكانه صوت دجاجة تقرقر فى تلذذ بالهجوع . وعندئذ تذكر جميلة .. تلك التى تجلس بانتظار عودته وراء هذا الباب المقفل الذى يشع من تحته نور خفيف لا تراه العين إلا إذا حملقت .

وعادت إليه صورتها بشكل أروع .. شكل ملائكى فى شفوف بيضاء .. طاهر محب باذل يمنح من يده ومن قلبه .. جدول رقراق يتسرب ماؤه لا يحس به أحد . لا أمواج ولا منحدرات .. مثل نور العين نرى به الدنيا ولا نرى له شعاعا .. « آه » وتأوه .. حقا .. أحس كأن شيئا ما يوجعه .. كأن ظهره على وشك أن ينشطر .. وفاحت له وهو على مقربة من الباب فى طريقه إليها .. إلى جميلة .. رائحة لبان معطر .. بدائى من صمغ الغابة لكنه مع أنفاسها يمنح رائحة ذات همس .. رائحة تتكلم بلغة الحب .. تثرثر بكلمات بعضها تافه وبعضها عادى وبعضها حكيم .. من قلب جميلة البكر الذى لم يعرف الحب إلا بعد ما دخلت عتبة هذه الدار .. له .. وشقشقت حوله خمسون زغرودة مثل خمسين طائرا .

كل هذا وهو فى طريقه إلى بابها لكأنما شحن فجأة وعلى غرة بحب سن السادسة عشرة وإن كان الليلة فى الثلاثين .. حب حزين راغب يقبل أطراف الأنامل ويركع ويناغى ..

وتأوه من جديد . وتمنى بكل شعوره أن يدخل عليها فيجدها باسمة جالسة بانتظاره وقد زالت عن وجهها تلك العتمة العارضة التى ألقتها فكرة راودتها .

وأقفل الباب وراءه بعنف كأنما خشى أن تدخل وراءه تلك التى قابلتها أمه .. تلك التى يحبها تماما ويعرفها تماما . وتمنى على الله ألا تطرق أمه عليه الباب لتخبره بقدومها .. فمن المحتمل أن تبيت عندهم ..

بدت له جميلة مثل أروع امرأة . كانت متكورة فى الفراش بلا غطاء ؛ لأن جو الحجرة دفىء . قدها المحدود أنهكه العمل . وفى معصمها لمعت عدة غوايش من قشرة الذهب استعاضت بها عن حلاها القديمة . لكن كان فى صمتها هدوء يكاد يصل إلى حد الخمود وخلف ظهرها نامت البنية الشعناء التى تحمل اسم أمه

دنا منها وجلس على مقربة من رأسها ثم هزها فرفعت وجهها إليه . لاحت له ابتسامة مستنيمة كأنها تنبؤ فخفق قلب الزوج وتذكر المرأة التى دخلت دارهم منذ لحظات ، ثم ما لبث أن تمدد إلى جوار زوجته وأخذ بلا مقدمات يقص عليها ذكريات من أجمل حوادث عمرهما المشترك ويد تمر على رأسها حتى أسقط المنديل وأخذ ملمس الشعر الناعم يتلاقى بطريقة الحركة مع كفه

« أنت إنسانة يا جميلة .. لا أدرى لماذا حضرت إلى عينى صورتك وأنت تدفعين عود الحديد بين فكى الجمل وتضغطين عليه بقوة وتصرخين لكى يترك ساقى من بين أسنانه .. آه .. نعم .. لا أنسى .. ويومها كان سيفترسك فى الحقل لولا تجمع الناس .. نعم يا جميلة .. ربما لم أكافئك على كل ما تعملين كما تقولين .. نعم .. لكن ..!.. أحيانا يقول الناس أكثر مما يضمرون .. و .. أحيانا يضمرون أكثر مما يقولون .. نعم .. إننى أسمعك » .

ولم يلبث حديثهما أن خفت .. ثم أخذ يتقطع .. وشعر الزوج بلهفة من سيقيم ليلة ثم يرتحل . وبدأت اللهفة والشوق يلونان أفعاله بألوان خطفت لب المرأة حتى وصلت إلى الحال التى يعجز فيها الناس عن أن يقولوا .. وعليهم أن يعبروا بالصمت ..

وعلى سطح الدار فى دفء الحطب صاح ديك عدة مرات بقوة طائر يختال بريشه ومرح عين تحلم بنور النهار .. وفى هذه اللحظات كان الزوجان قد بدءا يستسلمان لنوم عله أن يجدد النشاط !!

وفى الصباح الباكر خرجت جميلة من حجرتها إلى أعمالها المعتادة في الدار . وكانت فى ذلك اليوم أشبه بنبات سقى حديثا .. أخضر ريان يميد مع النسيم ..

ومرت بساحة الدار فلقيت الأم .. حيتها بابتسامة وكلمة فلم ترد الأم . كان إعراضها فى نظر الزوجة شيئا بلا سبب

ولذلك حاولت ألا تفكر فيه . وبعد زمن ليس بالطويل دخلت على زوجها لتوقظه ..

كان الباب مفتوحا ونور النهار يملأ الحجرة التى لا شباك فيها ففرك الزوج عينيه وتلفت كأنه يتعرف على المكان الذى هو فيه ، وقابلته ابتسامة صبوح من فم جميلة لكنه أنكرها .. تجاهلها مثلما تجاهلت أمه التحية .. وظل راقدا على ظهره لا يتحرك .. تمطى وتأوه وعندئذ تحسست زوجته جبينه وسألته فى رقة وشوق من تريد أن تشاركه طعامه :

ــ هل أجهز لك الفطور ؟

هتف بخشونة :

ــ لا !!..

عجبت .. لا شىء يدعو إلى كل هذا .. ما الذى حدث ؟! إن ليلة شتوية دفيئة وحجرة مغلقة معدّة كانت مسرحا لحبها طوال السهرة . وقد ظل يعدد لها مزاياها التى لم تكن تذكرها كأنها فى حفلة تكريم ..

إنها لم تكن تدرى أن الضرة الحبيبة هبطت عليها فجأة .. فمن حين لحين .. كل بضعة أشهر أو بضعة أسابيع .. كثيرا وقليلا وبلا نظام وفى مواعيد غير معروفة تهبط عليها هذه الضرة الحبيبة فتعكر صفاءها ..

قالت لزوجها الذى كان لا يزال مستلقيا على ظهره ووجهه واجم كئيب :

ــ سعد .. مالك ؟ هل تشعر بتعب ؟..

ــ جدا ..

ــ ماذا يؤلمك ؟

ــ لا شيء .. جسمى كله .. سليم .. الذى يؤلمنى شيء خارج جسمى يا جميلة !

أخذتها الدهشة فانفرج فمها الصغير الذى بات طول الليل ورائحة اللبان تفوح من أنفاسه . ثم سألت فى همس :

ــ لست فاهمة شيئا يا سعد !.

همهم .. ثم سكت .. وفرقع أصابعه وتمطى وتأوه .. كان يبدى عدم اهتمام قاتل .. وعندئذ وضعت الزوجة كفها على خدها واستسلمت للتفكير . ومرت لحظات صمت قال بعدها الزوج هازلا أو جادا :

ــ كان فى بلدنا قديما عمدة يحكون عنه .. كان قاسيا جبارا .. ولم يكن يعيش له أولاد .. ولكى يعيش له ابن يرث أرضه وملكه تزوج من امرأة ثانية وبعد ذلك أخذ فى الإنجاب من زوجتين لكنه مع ذلك لم يعش له أولاد . فاعتقد أن دعاء الناس عليه هو سبب موت أولاده . لذلك كان كلما مات له ولد فرض الأحزان على أهل القرية فلا خطبة ولا كتاب ولا قران ، ولو استطاع منع النساء من الولادة لفعل .

صرخت فيه بحدة واستعجال :

ــ ماذا تريد أن تقول ؟!

ــ أريد أن أقول إن أحزان بعض الناس قد تكون سببا فى هدم

أفراح ناس آخرين .. هيا .. البسى ملابسك واذهبى إلى دار أبيك .. وعليك أن تبقى هناك عند والدك وشقيقك حتى تعود أختى زوجة أخيك إلى دار أبيك .. لا تبكى .. فإن أخاك طرد أختى . وهى نائمة حتى الآن فى حجرة أمى .. وقبل أن تخرج إلى ساحة الدار عليك أن تذهبى فإن دارنا كما تعلمين لا تتسع لكما معا . وليس هذا طبعا ذنبى كما تعلمين فقد حدث أيضا أن دار أبيك لم تسعك أنت وأختى ..

ـــ آه ..رأيت ذلك على وجه أمك ..

رد بعدم مبالاة :

ـــ لا تظلمى أمى فإنها فى هذا ليست وسيط شر . فلو أنها غير موجودة ما تغير الموقف كثيرا .. ما دام زواجنا قد تم بهذه الطريقة ..

نظرت إليه تسأل بعينيها : « لكن .. ألست تحبنى ؟! » .

فأجاب بعينيه : « وماذا يفعل حبى ؟ إن الحب كثيرا ما يعجز !! » ثم رفع صوته :

ـــ توكلى على الله .. وحاولى أن تصلحى ما عندكم ليصلح ما عندنا ..

وضحك وضحك .. ثم بكى وبكى ..

الشريكان

كم تمنى أن يرى ابنه ضابطا من ضباط الشرطة ؟!.. ويوما ما تبسم من نفسه فى شبه سخرية من هذه الأمنية لأنه كشفها .. فقد كان البارحة فى مستشفى قصر العينى عند صديقه الممرض هناك ولما دار بينهما الحديث عن الأبناء سمعه يتمنى أن يكون ابنه طبيبا !!..

وتحسس « طلبة » عسكرى الشرطة حزامه العريض على وسطه وهو راجع إلى الحجرة المشتركة التى يسكنها هو وآخر من زملائه . ووقع حذائه الغليظ على أرض الشارع يرسل إلى سمعه شيئا غليظا ..

ولم يدر لماذا أحس بحاجة شديدة إلى التأوه أو بميل إلى أن يلكم شيئا ..

وعبثا حاول أن يبحث عن السبب .. إنه مسافر اليوم ليقضى الليلة عند زوجته « أم نبيل » فى « الراحة » التى تمنح له . وهى مقيمة فى القرية على بعد خمسين كيلو من القاهرة . هربا من التكاليف . وطلبا للمعيشة المعقولة . وهو فى مثل هذه المناسبات يشعر قبل السفر بجو مشحون بالغموض واللهفة والحب .. لكن .. ما باله فى هذه المرة متضايقا يميل إلى التأوه أو إلى أن يلكم شيئا ؟!.

وأشعل سيجارة أعطاها له صديقه الممرض كان قد احتفظ بها حرة بلا علبة فى أحد جيوبه ، وعندما نفث سحابة الدخان وامتلأت خياشيمه برائحته ، هز رأسه فى الحال كمن يوافق على فكرة .. فقد عرف لماذا هو متضايق يميل إلى اللكم أو البكاء .

كان سر ذلك أن زميله فى السكن بات طول الليل يحكى له حكاية سمعها فى إهمال أول الأمر ، ثم ما لبث أن انتبه .. ثم ما لبث النوم أن طار من عينيه .. ثم سهر بقية الليل مفكرا ..

ــ تصور يا « طلبة » .. كنت أريد أن يكون أحسن منى ذلك الولد الملعون .. تصور ..

ــ له رزق عند الله ..

فرد زميله بأسى :

ــ مفهوم يا طلبة مفهوم .. لكن .. عندما « عظَمت » ذلك الضابط ابن العشرين عاما والذى عيِّن حديثا فى « قسمنا » تصورت أنه ابنى .. آه يا طلبة .. لكن ابنى يا طلبة فى الخامسة عشرة من العمر . بينه وبين هذا الضابط خمس سنوات فقط .. و ..

وانقطع صوت زميله ، وسكن الليل فظن « طلبة » أنه قد نام من ثقل الهموم التى قد تكون أحيانا فى وزن كابوس يجر إلى عالم متوسط بين الحياة والموت .. وعلى كل حال ليس نوما . ظن طلبة ذلك فسرح خاطره إلى مكان آخر ؛ وما كاد يفعل حتى سمع إجهاش زميله بالبكاء وعندئذ جلس فى فراشه وصاح به فى

الظلام : « اخص عليك راجل ! » ..

وتركه يكمل دموعه ، ليغسل همومه فلا فرق فى ذلك بين عين وعين ولا قلب وقلب . ولا عقل وعقل إن صح التعبير ..

إنه يعرف أن ابن زميله هذا البالغ من العمر خمسة عشر عاما له مأساة تناسب سنه لكنها فظيعة بالنسبة للأب . وهذه المأساة أنه رسب فى امتحان القبول سنتين متواليتين فى القرية . وإنه بذلك بلغ خمسة عشر عاما . والضابط الذى يحييه هذا العسكرى ويرى فيه ـــ وهما ـــ ملامح من ابنه خصوصا فى العينين ، تخرج من كلية الشرطة وهو ابن عشرين .

ورأى « طلبة » القضية معقولة . لكن زميله عز عليه . إن رائحة احتراقه تفوح من فمه إذا ما تكلم .. وصوت بكائه نوع جديد من الولولة على غلام كبير قد .. غرق .. فى نهر الحياة .

ورأى « طلبة » أن من واجبه أن يخفف عن زميله فقال له :

ـــ السعادة ليست فى شىء واحد . ربما كان بائع البطاطا الذى جررته بعربته اليوم « مخالفة » أسعد من هذا الشاب الذى تحسده .. أليس هذا من الجائز ؟!. عندئذ ضحك زميله من خلال الدموع قائلا :

ـــ أضحكتنى .. ذكَّرتنى بذلك المهرج بائع البطاطا . فقد حايلنى لأتركه فلما لم أرض أخذ طرطورا من داخل العربة ولبسه وصار يترقص لى بكل شىء فيه وهو يقول : « مخالفة تفوت ولا حد يموت يا بو نبوت » .. لكن .. لو كان لهذا الرجل ولد عمره

كم تمنى أن يرى ابنه ضابطا ...

خمسة عشر عاما ورسب فى امتحان القبول مرتين ، هل كان يفعل هذا ببال خال ؟!..

رد طلبة فى سهوم .. الهم قد انتقل إلى قلبه شأن تضامن الإنسان مع مطلق الإنسان . ثم ما لبث أن تذكر شيئا هاما . لكنه قبل أن يسترسل فى أفكاره قال لزميله :

ـ نم .. لا تقتل نفسك حزنا فأنت مريض بالسكر . كثير من الأولاد نبكى من أجلهم فى أول العمر ونحن لا ندرى أنهم سعداء ..

من أجل هذا أحس طلبة أنه مهموم .. وهو الآن سائر فى الشارع الرئيسى لكى يذهب إلى حجرته ليأخذ حقيبة السفر . سيقضى الليلة مع أم نبيل زوجته . والسفر فى الصيف جميل . سيسهران تحت النجوم لا سقف فوقهما حيث ينامان هربا من الحر ..

وستفوح من « القلة » رائحة بخور وتفوح من « الحلة » رائحة توابل .. وينقص الدجاج الحيّ فى الدار واحدة ..

ثم يخرجه صخب القطار عن أفكاره .. وعاد فتمثل كل الصور التى عرضها عليه زميله فى الظلام ليلة أمس . وفجأة أحس أنه يجب أن يحزن .. نعم .. « حقيقة إن تنظيف الشوارع ليس أقل كثيرا فى نظر الصحة من العلاج فى المستشفيات لكن .. آه .. الفرق كبير » ..

وعندئذ لاح لخياله وجه «نبيل » ابنه . هو فى الثامنة من العمر الآن وفى السنة الثانية الابتدائية .. وأمه .. حلوة .. تنتظر عودته

بكل ما فى الأنثى من مهارة .. لكن « آه » وقلب كفيه ..

أحس أنه محاصر وأنه لا يدرى ماذا يصنع . وتذكر العمارات الشاهقة التى ذهل لها أول ما رآها فى القاهرة ونظر إلى الواقفين على « السقالات » بإعجاب لكنه الآن يرى كل هذا باطلا .. فبناء أمثال : « نبيل » و « صالح » .. و « بثينة » أصبح هو الذى يدعو إلى التأمل .. أشياء نبنيها ونحن واقفون على الأرض أو جالسون .. وهذه هى التى تسعد أو تشقى .. آه .. كانت دموعه فظيعة عبَّرت عن آلامه .. وضحكته .. عملت نفس عمل الدموع » ..

وكان « طلبة » يعرف حياة زميله الداخلية . ويعرف أن ما هناك فى منزله لا يعطى إلا هذا . لكن بعده من البيت كان له دخل فيما حدث لابنه وزوجته لم تتعلم .

كان « طلبة » يصعد السلم المؤدى إلى السطح والشمس معلقة على الأفق .. فى الدار تفوح روائح ناطقة . كل رائحة تشير إلى قصد : البخور والتوابل والماء المرشوش على أرض الدار رائحته مثل رائحة جنينة لا ترى أشجارها . والصابون المعطر الذى يفوح من ملابس زوجته ومنديل رأسها .. والحصير المفروش يبرق تحت النور الغارب ، وهتافات نبيل ابنه بالتحية والسؤال عن « لعبة » كان قد أوصى بها ..

وجلس « طلبة » يتعشى فى صمت .. ونجحت الروائح كلها حوله وهو جالس مع زوجته وابنه . لكنها جميعا لم تفلح فى

شيء .. كل ما يفعله كان بلا شهية . حتى الهدوء المستسلم وغمزات النجوم ووسوسة « غوايش » زوجته وغمز نبراتها .. لم يفلح فى شيء ..

كان « طلبة » لا يزال هناك . لم ينفصل بعد عن الساعة التى بكى فيها زميله وضحك .. فليس معنى مرورها أنها ذهبت . كان « طلبة » منغمسا فيها . ولا يزال يذكر منظر التعيس الذى يمسك بتلابيب تعيس يجره .. ذلك هو زميله وبائع البطاطا . ثم الرقصات التى تحمل معنى « أنه لا فائدة » والتى كانت تصدر من البائع ، والتى ضحك منها زميله فى الظلام . لعله لم يفهم قصدها . ولعل « طلبة » فهم منها تعبير « الباليه » يبدو رقصا وهو لغة ..

وكانت زوجته محملقة إليه قلقة عليه .. كانت ترتب نفسها لتجعله ينام خلى البال ، ونظرت إلى النجوم وتأوهت وقالت بليونة ريفية :

ــ طلبة .. النجوم حلوة .. الله !

همهم الرجل :

ــ أى نجوم ؟!

لكنها أحست أن شيئا أثقل من قوتها يقف بينها وبينه وعندئذ قالت بلا إرادة :

ــ نبيل .. كلّم أبوك .

فزحف نبيل جالسا على الحصير المصقول حتى التصق بأبيه . ألقى كتفه على صدر أبيه ورفع وجهه إليه هامسا :

ـــ اشتريت لى اللعبة ؟

فدفعه الأب بقسوة حتى اندفع بعيدا عنه .. وذهب يكفكف دموعه .. ثم نام ..

كان يقول لزوجته وهما مختليان تحت النجوم .. يقول بسهوم :

ـــ يسألنى عن لعبة . ابن زميلى بلغ من العمر خمسة عشر عاما ولم .. و .. و .. و .. وأنا الآن بعيد عنه .. أنا لو كنت معه ما قدرت على نفعه .. وأنت .. لا تعرفين أكثر منى .. وهو لم يعجبنى فى المرة السابقة . سألته فلم يعرف .. و .. وأنا رأيت ناسا يبنون عمارات عالية ببساطة .. بناء نبيل وبثينة محتاج إلى مهندس إلهى ..

وعندئذ أحست الزوجة أن رائحة البخور والتوابل والصابون المعطر والأرض المرشوشة آخر ما يهم طلبة . هناك أشياء أهم لحياتهما من كل هذا فعضت شفتيها ثم أصبعها ثم لسانها ، ثم قالت :

ـــ الشيخ عبد الصبور رجل فى عمر والدى يعيش من تعليم أبناء القرية ..

فرد طلبة :

ـــ عال ..

ـــ صبرك .. سيعلمنى أنا ونبيل .. وسأكون زميلته فى حل الواجبات .. وافق على ذلك من أجل نبيل وسترى العجب منى

ومنه .. لكن قل لي :. عندما سينجح ماذا ستفعل لى أنا ؟!

ــ ......

ــ نسيت .. سيكون « نبيل » هو الهدية التى قدَّمها لى « أبو نبيل » ..

وعندئذ استطاع الرجل أن يشم رائحة البخور والتوابل والأرض المرشوشة والصابون المعطر ، واستطاعت المرأة أن ترى النجوم ..

ونعم الجزاء

لم يشعر الملك بسعادة مثل تلك التى شعر بها فى هذه الليلة . لكنها لم تلبث أن تبددت . وعندئذ سأل نفسه وهو يتقلب فى فراشه: « لماذا لا يشعر بأن للسعادة عمقا ؟.. لماذا هى هكذا مثل ظل السحاب ؟!» لكنه تنهد وتقلب فى فراشه ، ثم نهض جالسا :

كانت أنوار قناديل الزيت تتموج فى طبقات متهافتة على فراش غرفته الفسيحة . وبقايا شموع بأطراف سوداء لا تزال فى أماكنها بعد إطفائها . وجو الليل دفىء .. رآه عندما هصر ستارا وأطل من النافذة .. طيلسان أسود تحليه النجوم وتفوح من خلاله روائح حديقة لم يغرس الأكاسرة مثلها أبدا .

وملأ صدره بالهواء ووقف يحملق فى الظلام ، وسرَّه أن سمع صيحة ديدبان عند بقعة من السور العالى فتبسَّم وهز رأسه . عاودته لمسة السعادة التى لا تكاد تبقى على شغاف قلبه إلا بقدر ما يمر الطيف . وأخذ يتذكر ..

خيول على أفواهها الزبد مقوسة الظهور والرقاب من ثقل الحمولة تجر عربات نصف قطر عجلة العربة منها ما يقرب من مترين ، سُوَّاقها بعضلات عبيد روما ينقلون الأحجار من كل مكان لبناء السور حول قصر الملك . بعض هذه الأحجار أخضر

من طحالب البحر وبعض هذه الأحجار أحمر لأنه كان مسكنا لحيوانات قتلت ، وبعضها أسود كأنه كان على فوهة بركان . ولما ارتفع السور بجفائه وغموضه وأسراره كأنه طلاسم رُكب الملك عربة ودار حوله من الليل ، وعندما رأى الظلمات ترسم خطوطها مع تقاسيم أحجار السور رضي قلبه .. سيكون فى مأمن . ثم .. هناك « قمرات » على حافة السور العليا .. يقف فيها حراس بشوارب الأسود وعيون القصور .

وتحسس الملك أطراف الستارة وتنهد ، إنه لا يكاد يشعر بالرضا ولا يكاد يعرفه مع أنه قد رآه مرة ، رآه واضحا جميلا بسيطا يكاد يمسك بأطراف الأصابع ، هناك فى أبعاد هذه الحديقة التى يطل عليها الآن والتى تفعم الليل بروائح ملأت مخدعه .

كان الصباح باكرا يومئذ لا يستيقظ فيه الملوك فى العادة لكن هموم قلبه أيقظته . فهذه التى بنى القصر من أجلها سمع عنها أنها توقفت في أحد أسفارها عند كوخ فلاح وحدَّثته وشربت من جرَّته ؛ ولأجل هذا استيقظ مهموما .

والشمس لم تفرش العشب فى حديقة قصره . وهناك غلام يلعب فى يده فأس صغيرة كأنها بنت لفأس أبيه الجناينى الكبير .. وأبوه بعيد عنه فى مكان ناء من الحديقة ، والغلام يسوِّى بفأسه أحد أحواض الزهور .. يعمل ويلعب ..

وقف الملك يتأمله في ذلك الصباح .. لم تكن الحديقة مظلمة هكذا كما يراها الآن تحت طيلسان الليل ، ولم يشعر به

الغلام ، وكان يغنى أغنية للفأس الصغيرة ، كان يقول لها : « اكبرى لأكبر معك . فعندما يطول ذراعك سيطول ذراعى ، وطالما أنت صغيرة سأظل أنا صغيرا .. اكبرى » ..

كان صوت الغلام فى ذلك الصباح وهو يضحك وحيدا مثل صوت هذا الطائر الذى يتناهى إلى سمع الملك الآن فى الليل ، وتمنى الملك ساعتئذ أن يجلس على الأرض أمام حوض الزهور وهلة صغيرة لكن هذه اللمسة ما لبثت أن ولّت سريعا مثل كل اللمسات فتنهد . فقد شم رائحة الرضا . وعندئذ تنحنح . جفل الصبى ونهض واقفا وفأسه فى كفه ينظر إليه بعينين متسائلتين تقولان : « من أنت ؟ » فوضع الملك سبابته على فمه يطلب من الغلام السكوت وهو يلتفت إلى ناحية أخرى من الحديقة لكى يوهم الغلام أن أحدا قادم إليهم .

وبدا على وجه الصبى حيرة ، وأخذ ينظر بحركة لا إرادة فيها وعندئذ قال له الملك هامسا :

ــ إن الملك سيأتى من هذه الناحية .. هس .. لا تتكلم ..

ــ إذن فلست أنت الملك ؟!

هز رأسه نفيا فبدا الهدوء على وجه الغلام .. وبدأ يتحرك مبتعدا عن محدثه وعلى وجهه أمارات من شبع من حديث . ملَّ .. لكن الملك أمسك به من صداريته ليستوقفه فنظر إليه الصبى نظرة من يعاتب على الحرية وسأل بعينيه : « لماذا ؟ » .

فقال له الملك :

ـــ لماذا لا تنتظر حتى تراه ؟!

فأجابه الصبى بهدوء :

ـــ لأننى لا أشعر برغبة فى ذلك !

سأله دهشا :

ـــ ولماذا ؟

فردَّ ببراءة :

ـــ لأنه لا يشعر برغبة فى أن يرانى ..

ثم جرى هاربا بين الخمائل الحديثة الغرس وفأسه ذات اليد الصغيرة فى يده الصغيرة ، لكن منظر عينيه الراضيتين لم يبارح خيال الملك كأنما كان هذا الصبى خائفا على طمأنينته أن يأخذها أحد ..

عيناه سوداوان مثل هذا الليل الذى يطل عليه من نافذته الآن وأمامه خضرة الحديقة المبهمة تترامى حتى السور العظيم ، ذلك الذى لم يبن سور مثله قط .. وكأنما لذ للملك أن يمتحن يقظة حراسه فترك النافذة ودخل إلى غرفته وأحضر طبقين من الفضة ووقف فى النافذة وصفَّق واحدا منهما بالآخر فانتشرت همهمات .

كان هو قد أسدل ستائره وتمدد فى الفراش فى الداخل .

وعندما لقى حبيبته فى اليوم التالى وصف لها آلام نفسه ، إنه قادر على أن يمتلك كل شىء لكنه عجز عن أن يمتلك قلب غلام صغير لعدة دقائق . ويرى فى عيون البسطاء سعادة ذات رونق

حقيقى هو على يقين من أن قطرة واحدة منها تفعل فى حياته ما لم يفعله ذلك القصر الذى تحدث به الملوك . وعندئذ سأل حبيبته التى بنى من أجلها القصر عن سر عناء نفسه . فأجابته : بأن الذى يملك عادة شيئا لا يملك الناس مثله فعليه أن يعيش فى خوف . فهذه ضريبة التفاوت . وهأنتذا تملك أجمل شيئين فى الوجود !.

ثم قرقرت ضاحكة فمسح الملك بكفه على شعرها المخملى وأغمض عينيه ثم قال لها :

ـ أنت يا من شربت من جرَّة فلاح أثناء أحد أسفارك .. لقد صنعت لك من الينابيع ما هو فى صفاء الفضة ونظافة الندى . حوريات من المرمر على حوافى كل ينبوع يسكبن الماء لحبيبتى طول الليل والنهار فى انتظار شربة . وأوصيت مستحضرى العطور أن يأخذوا روح كل زهرة فى حديقة القصر لكى يصنعوا لثيابك عطرا محرما على غيرك . ومن أجلك نقلت الأحجار من كل لون . أخضر يغطيه الطحلب وأحمر يلوثه الدم وأسود كأنه كان على فوهة بركان . إننى يا حبيبتى أبحث عن الرضا الحقيقى الذى رأيته فى عين الغلام فى الحديقة .. لو أطل من عينى يوما فسأكون اسعد الناس . وهأنذا أرى شيئا منه يطل من عينيك فلماذا لا تمنحيننى نفحة منه . فقد تعلمت أن قلوب الناس تطل من عيونهم فتلك هى النوافذ الطبيعية للقلوب يا سيدتى .

لم تكن هذه الفتاة تحب الملك . لكن معظم الفتيات كن يحسدنها على حظها . وكانت هى تتساءل عن الحظ . كانت

كانت تؤمن بأن القدرة ليست مرادفة
للسعادة بدليل ... هذا المـــلك

تؤمن أن القدرة ليست معنى مرادفا للسعادة باستمرار . فكثيرا ما تكون القدرة سبيلا للتعاسة .. مثل هذا الملك .. الذى ترك الناس يبحثون عن حجر بناء فلا يجدونه ومع ذلك هو شاعر بالخوف . ثم يطلب منها ـــ أن تمنحه ما لا تدخره له .. إنها تحب صانع أدوات موسيقية .. وكل قيثارة صنعها كان أول نطق لها نغمة حب مهداة إليها .. فى حياتهم ظمأ وجوع وشبع ورى .. ما أحلى هذا !! ليس قدرة جبارة تجمع الأحجار من كل لون الأخضر منها والأسود والدامى ..

لكنها كانت تطلب منه ما يعجز عنه دائما فقد طلبت أن يبنى لها قصرا لم يسكنه ملك قط . وقد فعل . وهى حتى الآن لم تستطع أن تنسى حبيبها . وجرة الفلاح التى شربت منها طالما حدثها هو عنها .. عندما كان يخرج إلى الخلاء ليذكرها أو ليتسلى عن حبها .. فشربت هى الأخرى من فمها الخشن ..

وفى هذه الليلة قام الملك يطل على الحديقة . وقف فى النافذة نفسها تلك التى وقف فيها منذ ليال . وكان فى قلبه هم كبير أفاق منه ليطلب أحد الحراس . فلما دخل عليه قال له الملك :

ـــ عليك أن تأتى إلىَّ بالبنَّاء حالا .

ـــ البنَّاء الذى بنى هذا القصر يا مولاى ؟

فردَّ فى صخب :

ـــ هل تظن أننى أقصد ذلك الذى بنى داركم أيها المغرور .. اذهب !

فانصرف يرتجف . وما لبثوا أن جاءوا بالبنَّاء. دخل على الملك وهو لا يدرى ماذا يريد فهذه ساعة متأخرة من الليل . لكنه على كل حال دخل عليه مبتسم الأسارير :

ــ يسعدنى يا مولاى أن تطلبنى فى هذه الساعة من الليل . ذلك يدل على اهتمامك بشخصى الضعيف الذى يود أن يعيش خادما لكم .

فسكت الملك قليلا ولمعت عيناه بما لم يستطع البنَّاء أن يراه . ثم أخذ يحدثه عن الأخبار التى تواردت مع بعض القادمين من التجار تدل على أن أحد الملوك ينتوى بناء قصر لن يجعل لقصره ذكرا .

لكن البنَّاء رد على الملك فى غرور خفى وبطريقة كان موقنا أنها ستحمل الأمان إلى قلبه :

ــ من المحال يا مولاى أن يبنى ملك قصرا مثل قصرك . وحتى لو استطاع ذلك بما يملكه من ذهب فإنه لن يستطيع ذلك إلا إذا بنته يداى هاتان .

غمغم الملك :

ــ يداك هاتان !

ــ نعم . وهما من أدواتك ولن تعملا إلا لرضاك !

ــ حسنا ..

وساد صمت . ونظر الرجل إلى الملك فوجد على ملامحه شيئا غامضا يبدو فى صورة تقدير لعظيم فنه وإخلاصه . وكان

الملك فى هذه الوهلات سابحا فى رغبات حبيبته التى لم يعرف رغباتها قط .. فلما أفاق من خواطره قال للبناء :

ـــ هناك أبراج تبدو فى الليل شديدة الغموض .. ما أروعها ... هلم أيها السيد فأشعل الشموع فى هذا الشمعدان وتعال معى نلق نظرة على هذا السحر . وما أعظم أن تشرح لى مقاصد الأحجار حين تضعها يد بارعة بعضها جنب بعض فتصبح ذات لغة كالشعر والموسيقى .. آه .. هلم أيها السيد .

وعندئذ غمر الغرور قلب البنَّاء ومشى بالشمعدان يسبق الملك . أنواره تتراقص فترقص بها ظلال الرجلين .. البناء والملك .. وسمع الحراس ورأوا لكنهم سكتوا .. وبدا السور الغامض البناء ذو الأحجار الفظة وكأنه قادر على محاربة الناس أجمعين ، ومن خلال الحديقة انبعث صوت طائر غريب . زعق مرتين وسكت وسأل الملك البنَّاء عن اسم هذا الطائر هل يعرفه ؟ فرد الرجل والشمعدان ينتقل من يد ليد : لعله « مالك الحزين » يا مولاى .. فمط الملك شفته وسأل البناء :

ـــ ولماذا هو حزين أيها البناء ؟!

ـــ يقولون لأنه لم يذق حلاوة الحب .

ـــ لكن الطيور شديدة العشق ولهذا فهى كثيرة المرح .

ـــ لعله عيب فى السلالة . هكذا يقولون .. هذا أول باب البرج يا مولاى ..

كان نور الشمعدان يرتمى واهنا على الدرج الحجرى وروائح

مثل أنفاس الكهوف تنبعث من المكان .. والبناء يصعد بظهره أمام الملك لينير له الطريق ويحدثه فى إخلاص وخوف غامض .

وعندما بدأ الاثنان يلهثان كانا قد بلغا مرتفعا شاهقا . ووقف البناء يشرح لغة الأحجار وكيف تنم العقود بلا مونة وأثر المداخل الطويلة على النفوس . وكان الليل شديد الصمت والشمعدان على الأرض .. والسقف مظلم وظل الملك والبناء يشتبكان وينفصلان بين لحظة وأخرى ..

وكان الملك صامتا . مثل تلميذ يسمع ولا يعى والآخر مسترسل فى الحديث . يبدد المخاوف بالكلام مثل تعويذة لفظية يتقى بها المخاطر . لكن صمت الملك كان متصلا لا شيء يقطعه ..

لا نحنحة ولا همهمة ولا ثناء ولا اعتراض ..

ووقف الملك وأطل من أعلى برج ، وكانت الأرض بعيدة وتحت البرج تمثال « قاذف القرص » الرومانى ، يغطى الظلام جسمه الفذ .

وظل الملك فى موقفه ظهره للبنّاء الذى يتكلم ويتكلم . والشمعدان على الأرض . يرسم ظلالا مرتجفة فى أماكن شتى من البهو الذى يقفان فيه .

وشعر البناء أنه يكلم شيئا لا يسمع لكنه خاف أن يسكت فأعاد ما قال على أمل أن يقول له الملك : لقد سمعت هذا من قبل لكن شيئا من ذلك لم يحدث بل ظل هو واقفا فى مكانه حتى فرغ

البناء من « درسه » وصمت فلم يلتفت إلى الملك . فإذا بالبناء يخاف قوة الصمت التى تظلل المكان خصوصا عندما بدأت الشموع تجرى نحو نهاياتها .

عندئذ شرع فى إعادة ما قال مرة ثالثة لكن الملك ما لبث أن التفت له وقال له :

ـــ تعال .. تقدم لترى جمال هذا المنظر أيها الرجل الطيب .. لن تبنى مثل هذا أبدا .

وتقدم البنَّاء وأطل . فدفعه الملك من أعلى ـــ فجأة ـــ فسقط على التمثال تحت النافذة فاقد الحياة .

* * *

« كنت تخافين يا حبيبتى أن تسكن حسناء أخرى قصرا مثل قصرك ومن أجل حبى لك جرمت « سنمار » البنَّاء من الحياة .. فهل أنت سعيدة ؟! » .

لم ترد عليه الفتاة . انصرفت ليلتئذ ولم يعد يراها . كأنما كان ذلك هو المدخل الوحيد الذى شوى قلبه بالألم . وقالوا : إنها فرَّت وحدها . وقالوا : إنها فرَّت مع حبيبها صانع الآلات الموسيقية . لكن الملك ظل بعد ذلك طوال سنة كاملة كلما جنَّ الليل يحمل الشمعدان وحيداويذهب إلى نفس البرج وينازع نفسه ساعة كاملة أن يلقى بجسمه من حيث ألقى « سنمار »البنَّاء ... حتى وافته المنية .

الست كريمة

كأى فتاة من سكان المدينة لا تزال فى مقتبل العمر ولم تر الريف إلا وهى صغيرة ... شعرت بوطأة الليل عندما انتهت سهرتها عند الطبيب وزوجته وغادرت الجناح الصغير الذى يسكنونه فى حديقة المركز الاجتماعى فى القرية وأخذت طريقها إلى غرفتها فى الجانب الآخر .

وكان يؤنسها ، وهى فى الطريق صوت كلب ينبح ومصباح صغير حملته فى يدها ليلقى دائرة من النور أمامها .

وعندما أغلقت على نفسها الباب واستلقت فى فراشها أحست أنها على غير ما يرام . ووهلة بعد وهلة وهى مستغرقة فى التفكير شعرت بما ينقصها .. وعرفت أنه السكينة .. والسلام !.

ولم يزعجها الأمر كثيرا لأنها تعرف أنه غير متعلق بعملها . فهى منذ دخلت القرية . منذ ستة شهور قامت بمائة عملية ولادة نهضت الأمهات بعدها بسلام . وكانت نسبة الذكور فيها عالية ، ولذلك فقد كانت الفلاحات يقلن عنها : « إن سمرة وجهها أحلى من بياض اللبن » ..

نعم ..

ليس هذا هو ما ينغصها . بل إنه خوف من مجهول . شىء يتعلق باحترام الناس لها . فهى تعرف أنها « حكيمة » ولكنها

على الرغم من حداثة سنها ووجود طبيب فى المركز فإنهم ينادونها بكلمة « دكتورة » ويعتدلون فى جلساتهم على المصاطب وهى مارة عليهم .

وكانت عند ذلك تقول فى نفسها : « ما أحلى أن يشعر الإنسان بقيمته !! » وتمنت من صميم قلبها لو أن والدها كان حيًّا ومشى خلفها من على بعد .. بحيث لا يشعر الناس أنها بنته .. وخيل إليها أنه لو كان حيًّا ، ورأى هذا ما مات أبدا .. لعاش طول الدهر !!

* * *

لكن جوّها الداخلى فى المسكن كان يخيفها . وهى قبل ذلك لم تنم وحدها لا فى مدينة ولا فى قرية ، وقد شعرت منذ الليلة الأولى بثقل مسئولية حراسة الإنسان لنفسه .. « آه .. كثير من الأشياء يعجز المرء أن يعمله لنفسه ولا بد له من يد الغير . والحراسة من هذه الأشياء » .

كان الطبيب يأخذ زوجته نهاية كل أسبوع وينزل إلى المدينة حيث أهلها وأهله ولا يعودان إلا يوم الأحد ، والمشرف الاجتماعى يبيت عند أهله كل ليلة لأنه من بلدة قريبة ، وهناك الخفير المكلف بحراسة المركز .. نادت عليه ذات ليلة من الليالى التى يغيب فيها الطبيب فلم يكن موجودا . وكتمت ذلك عن نفسها وعن الناس .. عن نفسها لتتوهم أن هناك من يحرس المكان . وعن الناس حتى لا يصل الخبر إلى من لم يعرفه ، لكنها سمعت امرأة سليطة اللسان تناوش الخفير فى النهار وتعيره بأنه ينام

فى أحضان زوجته فلا يؤدى عمله فى الليل خوفا من ناس تشاجر معهم ذلك الجبان .

غير أنها ما كانت تخاف أحدا من الفلاحين . كانت موقنة بأن كل فرد منهم حارس لها .. فلقد سهرت ليلة بطولها حتى طلوع النهار إلى جوار امرأة تلد ورأت على وجهها سكرات الموت ثم .. انتصرت وولدت ولدا . ونسب القرويون إليها قدرة خارقة لا تخلو من مبالغة الريفى حين يتحدث عن « المهارات » و « الكرامات » .. ولكنها على كل حال سعدت بهذا الوهم .

وقالت فى نفسها : « لو أن أبى كان حيا ورأى هذا المجد الذى بنيته فى القرية ؟! » .

ثم ذكرت شيئا آخر : هو أن حالة الولادة التى تحدث بها الناس وقعت فى دار تعرفها .. لها بها صلة قديمة .. ربما كانت أعمق صلة تربط « قلبا » بمكان .

فهذه الدار كانت دار أبيها : إنها تعرف ذلك من أمها .. وفى ذهنها ذكريات غامضة مثل الرؤى والأحلام عن كل حجرة فيها . لكن « كريمة » أحست أن هذه المرأة تعانى آلام المخاض ربما فى البقعة التى ولدتها فيها أمها . والفلاحون فى القرية لا يعرفون ذلك ..

لا يعرفون أنها بنت عبد اللطيف زعزوع . كل الناس ينادونها باسم : الست كريمة .. فقط . ولهذا فإن الأمن الداخلى بالنسبة إليها غير محقق .

إنها أصبحت عدوة « للداية » منذ يوم وفودها . تلك المرأة القارح ذات العود والجسم والأرداف والصوت الخشن والحيلة . والتى أكلت دجاج القرية . ودعت كل مولود فيها بابنها : « آه لو تعلم هذه الداية بأننى بنت عبد اللطيف زعزوع !! » .

الداية والطبيب مصدر القلق لها ..

أما المشرف الاجتماعى فهو نقطة الحنان فى الموقف ... لكنه فى معظم الأوقات بعيد عنها .

* * *

ولما ماتت زوجة « الشاذلى » صياد السمك من آثار حمى بعد الولادة لم تكن فى الحقيقة إلا (ملاريا) ومات بعدها ابنها .. أخذت الداية تشنّع على « كريمة » وتتهمها بأنها لا تعرف شيئا . وبأن النحس أخذ يجرى فى قدميها نحو الأمهات . وسمعت ذلك من فم الطبيب الذى ينفذ (كلمة العلم) فى كل ما يعمل .. سمعتها منه فى إحدى الليالى وهى ساهرة عندهم وفى لحظة قامت فيها زوجته لبعض شئونها .. وملأ الغيظ قلبها . كان ممكنا جدا أن يقضى على مثل هذه الخرافة بدل أن ينميها . وأحست كريمة فى نظرته شيئا غامضا .. أحست أنه يطلب منها ما لم يخطر على بالها قط . وما دام لم يخطر على بالها فإنها لم تشعر توًّا بمقدماته . ومالت — بدون شعور — إلى التأويل الحسن ..

* * *

وبغريزة المرأة شاءت أن تمتحنه . ولم يزد الأمر عن نظرة لينة مستنيمة رددتها بينه وبين الباب الذى ستعود منه زوجته .. فطفح وجهه بالرغبة التى حركت فى قلبه هذه الضغائن .

وبعد عودة زوجته استأذنت فى الانصراف . وصافحت كلا منهما . لكنها تعمدت أن تهمل كفها فى كف الطبيب لوهلة أتاحت لها تأكيدا آخر بأن هذا الرجل يؤذيها لأنه يريد شيئا .

* * *

لم يكن الهدوء الذى يشمل المكان فى هذه الليلة عاديا بعد أن عادت إلى غرفتها .. كان صمتا أبكم .. كان الليل كف عن التنفس . لذلك باتت تسمع دقات قلبها وشهقات بكائها ؛ لأنها موقنة أن قوى الشر فى (الجهل والعلم) .. فى الداية والطبيب تحالفت لاتحاد الهدف .

والظلام الذى يغرى الريفى بالخروج للثأر أو للجريمة هو نفسه الذى طحن رأس « كريمة » بالأفكار . حتى كادت تجزم بأنه لولا وجود (الظلام) ما كثر التفكير فى الجرائم .

وطرأت عليها فكرة عادية ، وهى فى الفراش عجبت لماذا غابت عنها:«لماذا لا تنتقل إلى قرية أخرى.. وكله عمل!!» غير أن تعليل مثل الفكرة سعى إليها وكأنه سهم مضىء .. فوجدت نفسها تهمس:«إنه حمدى.. » المشرف الاجتماعى . الإنسان والرئيس الذى ارتبط فى نفسها مع ذكريات الكرامة .. والنجاح .. والجد .. وربما العطف .. وهو سر من الأسرار

سمرة وجهها أحلى من بياض اللبن ٠٠

التي جعلت الفلاحين يعتدلون في جلساتهم وهى مارة عليهم : « آه .. لو رأى أبى ذلك » .

ثم قالت وهى تعض شفتها : « لو لم أكن بنت عبد اللطيف زعزوع .. لو لم أكن بنته !! » .

* * *

ومنذ بدأت معاملة « كريمة » تلين مع الطبيب بدأت زيارات الداية لعيادة المركز ... تقل ..

ولم يكن ذلك مدعاة لسرور « كريمة » بل مدعاة لزيادة خوفها .

ولم يكن المشرف الاجتماعى من ذلك النوع الذى يجيد الكلام مع النساء ، بل كان حذرا وربما طويل الصمت . لكنها كثيرا ما ضبطته وهو ينظر إليها فى حب ... نظرة رجل لا يستطيع أن يقول ما يكنُّه لاعتبارات ليس فى وسعها أن تعرفها الآن .

وأحست كريمة أن حادثا ما على وشك أن يقع .. مجرد إحساس تأكد لديها يوم الأحد التالى عندما عاد الطبيب وحده من المدينة وترك زوجته هناك ليعود إليها يوم الخميس .

وكان طبيعيا أن تسأل الطبيب عن سبب تأخر زوجته :

ـــ لعله خير ؟!

وكان ذلك أثناء العمل فى النهار . فأجابها وقد كسر أحد جفنيه :

ـــ هل اهتممت بالأمر ؟!

وكان لا بد أن تجيب فردت فى ارتباك :
ــ طبعا .. إنه مهم ..
فسكت قليلا ثم أجاب وهو يطهر يديه بشيء من الكحول :
ــ أم سليمان الداية .. مريضة !
ــ شفاها الله ..
فأدار وجهه نحو النافذة وأولاها ظهره :
ــ إنها تحبك يا كريمة !.
فردت فى تهكم :
ــ من القلب للقلب رسول .
فقهقه ضاحكا ... وحملت ضحكته ما عجزت عن تشخيصه .. لكنها شعرت بشيء ثقيل يهبط على قلبها ..

* * *

لم يكن نورها قد انطفأ فى ليلة ذلك اليوم ..
سهرت تكتب بعض خطابات . منها ما هو لأمها ومنها ما هو لصديقات ...
« إننى أشعر بالقلق ... » وأخذ القلم فى انسيابه نحو كلمة أخرى فى خطاب الصديقة وإذا ببابها يطرق . كذّبت سمعها ولكن سكون الريف يجسم حتى خفق القلب . ونهضت واقفة فإذا بالطرق مع صوت الطبيب وهو يقول :
ــ « كريمة .. كريمة .. افتحى .. فيه حالة آ .. آ .. » .
وأسرعت وفتحت الباب . بعد أن طرحت على كتفيها شالا .
ودخل الطبيب فى الحال وأقفل الباب وراءه ... سألته لاهثة :

ـــ حالة ؟!.. ولادة يا دكتور ؟!

فهز رأسه نفيا وظهره إلى الباب .. وفحصته هى فى صمت .. رأت تهدج أنفاسه وشعر صدره البادى من (البيجاما) .. وكان واضحا أنه خاض معتركا من الأفكار قبل أن يقدم على هذا العمل . وتلفتت حولها كأنها تبحث عما تدافع به عن نفسها لكنها أدركت أن أى خطوة غير مدروسة قد تفضى إلى نتائج محزنة . فسألته فى مسالمة :

ـــ هل هذا تعبير عن الحب يا دكتور ؟!

فهز رأسه بالإيجاب . فقالت :

ـــ لكنى أنا شخصيا أفضل تعبيرا أخف . إن ذلك يخيفنى .. آ .. آ .. أنا .. أراك الآن غير الرجل الذى أراه فى النهار . فهل الليل يغير الأشياء ؟!

ـــ ربما .. أنا .. أ ..

فقاطعته :

ـــ أنا أعرف ما تريد .. وأنا .. مستعدة لمبادلتك عواطفك .. لكن .. هل دفعك إلى حبى أن زوجتك غائبة ؟!..

ـــ لا .. إنها .. إنها مسألة قديمة .

ـــ هل تحب أن نتصارع كما تتصارع الحيوانات ؟!.. ربما حدث .. ما ليس فى حسابنا ؟!

ـــ لا ..

ـــ إذن نتفاهم .. أنت طبيب .. وتحب .. تمام ؟

فهز رأسه إيجابا ..

ـــ كنت متوقعة هذا ، ولو كان لى أن أحذرك لفعلت ..

ـــ لماذا ؟!

ـــ من الممكن أن تعود بعد نصف ساعة .. وإن شئت ذهبت أنا إليك !!

ففتح فمه مدهوشا وقال :

ـــ فى .. فى .. فراش زوجتى ؟!

فضحكت وهى تغالب إجهاشها بالبكاء :

ـــ فراشها أقدس .. من .. روحى ؟! آه ..!!

وبلعت ريقها وهى تتأوه وصمتت ثم أكملت :

ـــ إذن فأنا مصرَّة على أن يكون هناك .. مالك تنظر هكذا .. أنا لا أخدعك .. فى استطاعتى أن أصرخ فيستيقظ الفلاحون .. و ..

ولم يمهلها ..

وخرج ..

وتركت الباب مفتوحا حتى ابتعد ثم أوصدته وارتمت على فراشها كالجريح المنزوف حتى تسللت الشمس من النافذة الشرقية .

* * *

ولم يمض يومان حتى التقى الطبيب بالداية ، وسألها فى فضول : عما إذا كانت تعرف رجلا اسمه عبد اللطيف زعزوع ؟ وفتحت الداية عينيها فى عجب كأنها تسأل عن العلاقة؟! ثم ضحكت فى تهالك .. فلم يكن رحمه الله إلا « لحَّادا » .. وكان

ذا صوت جهورى مضحك يستأجره الفلاحون للنداء عن حاجاتهم المفقودة : « يا أولاد الحلال .. يا أولاد الحلال .. معزة تايهة من البارح العصر . والحلاوة ريال يا أولاد الحلال » ولما مات رحلت زوجته ببنتين وأقامت فى المدينة .. واحدة منهما هى « كريمة » .

ــ « بنت اللحاد .. أصبحت دكتورة ؟ » ها ها ها !!

ــ « أبوها يدفن .. وهى تولّد » .. عال والله ..!!

ــ « كان أبوها جميل الصوت حين ينادى على المعيز المفقودة » الله يرحمه !.

ولم يعودوا يعتدلون فى جلساتهم وهى مارة ، وتهامسوا . وسمعت ضحكات . وشعرت بالغربة ..

* * *

وفى إحدى الليالى بينما كانت فى غرفتها بالمركز كان الجدل محتدما بين الطبيب والمشرف الاجتماعى حول هذه القضية فى منزل أحد الأعيان . وسفّه المشرف وجهة نظر الطبيب فى أنه كان يجب عليها أن تشتغل فى قرية غير قريتها من أجل راحة نفسها واحترام الناس الذى هو مصدر الثقة . ولم يكن أحد يعلم بالحلقة المفقودة فى القضية بينها وبين الطبيب .

وندّد المشرف الاجتماعى بمثل هذه النظرة واعتبرها فى المجتمع الريفى آفة تجب مقاومتها مثل الآفات التى تأكل الزرع والفاكهة . وعندئذ أحرجه الطبيب قائلا :

ـ يعنى هل من الممكن وأنت مقتنع بالأمر .. أن تقدم على الزواج من كريمة ؟..

وشخصت عيون الناس . ولم يكن المشرف من الذين يفرقون بين العقيدة والعمل .. لكنه عز عليه أن يعلن رأيه في مجال التحدى . فخرج صامتا وتركهم يتلفتون .. ولم يحىِّ أحدا ..

* * *

ولم يمض على ذلك أسبوعان حتى أعلن نبآن كان لهما فى القرية وقع وصدى ظل إلى أمد طويل . هو انتقال كريمة والمشرف الاجتماعى من القرية . بعد إعلان خطبتهما .. إلى قرية لها حظ من السعادة بهما لم توفره لنفسها القرية الأولى .

حَسَبَ الجَدْوَل

لم يشعر أنه فارقها إلا هذه اللحظة . حين وضع قدمه على بلاط الرصيف فى ساعة متأخرة من ليلة خريف . كان عائدا إلى القاهرة . كان فى الإسكندرية يودعها . ذلك شيء موجع . وعلى الرغم من أنه ينظر إلى جمالون محطة القاهرة الزجاجى ويسمع زفير القطارات تحته وهمس الشيالين فى جلابيبهم الزرقاء .. على الرغم من كل ذلك فإن روائح الميناء لا تزال مستولية عليه ، وكذلك أصواته .

وأقلعت الباخرة فى المساء . صفيرها مع البواخر الأخرى كأنه نواح مضبوط .. ليس له قرار ولا جواب ولكنه يصل إلى قرار القلب ..

وتذكر ذلك وهو ينادى سيارة أجرة لكى يصل إلى بيته سريعا . وألقى إلى السائق باسم الشارع الذى يقصده ثم انزوى فى الركن وقد عاوده كل شيء كأنه حاضر بين عينيه .

رحلتهما فى القطار معا إلى الإسكندرية لكى يودعها مسافرة إلى الخارج . والمقعدين المتجاورين . والكتف تلمس الكتف كلما مر القطار بمنعرج . والعيون تقول . والصمت مخيم وأحد المسافرين يطلق راديو على مقربة منهما فارضا عليهما الأغانى والأحاديث ، وهما صامتان . كل عين من عيونهما مربوطة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

بالشفة . لو نطق أحدهما لسالت الدموع .. كل ذلك غير مهم . لكن المهم هو آخر كلمة قالتها له وهى تصعد السلم إلى الباخرة ، ولم تكن آخر كلمة إلا ..

وعض شفته وتأوه . ونظر إلى الشارع عبر زجاج التاكسى فرأى لافتة كبيرة تحمل اسم إحدى المدارس . والسور ممتد والحدائق خضراء نائمة تحت الليل .

وذكره هذا بزوجته المسافرة من جديد . ما كان أروعها وهى تتهادى خارجة أو داخلة فى مثل هذا الباب !!.. بوجهها المسالم وقدها الضعيف ، إنه يدرى كم كان ضعفها يؤثر فى قواه .. كان يستلذ شكواها كلما التقيا قبل الزواج وكان يعزو كل ما بها إلى فرط الحساسية .

وقرقرت بالضحك يومئذ وقالت له : هكذا قال لى الأطباء . وقابل ضحكتها الرطبة بضحكة خشنة ورد عليها :

ـــ الزواج سيغير كل شيء !!

فأطرقت نحو الأرض وقد احمر وجهها جدا ، كان فى لون يدل على الحياء القاتل . وكم كان سعيدا بهذا الإحراج !!

* * *

هذه سيارة الأجرة لا تزال تقطع به الطريق . الشوارع مغسولة . ذات لمعان أسود مضيء تنعكس عليه أشباح المارة فى صورة نادرة الغموض .. ظلال سوداء لا معالم لها .. وهكذا كانت أفكاره .

كل الأمور سارت كما كانوا يتصورون . نعم ..
ــ سنكون آخر مودة فى الزواج والأزواج والمعيشة ..
ــ نعم .. وفى طريقة الحياة نفسها ..
ــ نعم .. سنعيش حياة عصرنا .. سيكون حبى لك وحدك ولا ثالث لنا ..
ــ حتى ولو كان الثالث بسببنا .. طبق العسل هذا لا يكفى إلا اثنين ..
ــ لا بد أن يكون لنا جدول .. عمل صباحى وعمل مسائى ووقت للقاء فى المنزل .. ووقت للقاء فى الخارج ووقت نستقبل فيه الضيوف ، ووقت نذهب فيه إلى طبيب الأسنان ، ووقت يلزم كل منا ألا يرى صاحبه ولا يكلمه حتى ونحن فى المنزل .
ــ نعم نعم .. لم نعد سادة للوقت ولكن الوقت هو السيد . ونحن كزوجين نالا أعلى قسط من التعليم وعرفا أعلى قدر من التجربة يجب أن نرسم وجه حياتنا .. هكذا .. أنا وأنت أولا .. وبعد ذلك .. يعدِّلها الله ..

وأصبح البيت بعد ذلك نموذجا للنظام والسعادة . كل شىء بجدول حتى ساعات اللقاء . ولعل أقرب الساعات إلى الطبيعة فى هذا البيت هى تلك الليالى التى تستقبل فيها زوارها من زملاء وزميلات فيعج البيت بالضحك والثرثرة وتنحل عرى النظام نوعا ما فيصبح الإحساس بالحياة ذا لذة غريبة الطعم مثل لحظة العرى فى الحمام قبل أن نصب الماء على أجسامنا .

وزادت المدخرات بمرور الزمن وسددت كل (الأقساط)

قلَّ العناء المادى . وأخذت الحياة لونا من الاسترخاء لم يشعر به الزوجان لأنهما كانا منغمسين فيه .

وكان قد مر على زواجهما ثلاثة أعوام ولم يقتنعا بعد أن يكون معهما ثالث .. منهما ..

كان كل منهما فى قرارة نفسه يتمنى لو ضجر الآخر فى هذا السباق الذى فرضاه على نفسيهما . كان هو بانتظار أن تبدأ .. وكانت هى كذلك . لكن كثرة المشاغل وساعات اللقاء الصافى ووفرة الرزق جعلتهما ينسيان الأولاد فترة أخرى من الزمن ..

ونظر وهو منزو فى ركن عربة التاكسى إلى الشارع فرأى أسرة عائدة ــ لعلها من زيارة ــ وقد ساروا يصخبون . أم وأب وثلاثة عليهم مظلة من السعادة . يضحكون بكل قلوبهم وأفواههم .

وعاودته أفكاره ..

ولما اعتلت صحتها ناوشته الوساوس : « ترى ماذا فعل بها البحر الآن ؟! » . زاد شحوبها وبدا ضعف جسمها الضئيل ..

« لعلها فى الخارج تستطيع أن تعرف سر ذلك » ، وخاف عليها وقررا أن يذهبا إلى الطبيب ..

دخلت وحدها وظل هو فى حجرة الانتظار . علل لنفسه ذلك بأنه لا يستطيع أن يقف وراء البرافان وهى تكشف ولا يستطيع أن يرى يدى الطبيب وهو يتحسس جسمها .. ولو أنه أمين !!

ولم يكن يعرف ما بالداخل ..

قال لها الطبيب بعد وهلة :

ـــ هل أنت آنسة ؟

فضحكت معتزة مستحية وردَّت وهى تمضغ كلماتها :

ـــ بل زوجة !!

ـــ حسن .. إنك أم ..

وضحك فى تشكك وحملق فيها .. فهذا الخبر أصبح يحزن الغالبية العظمى جدا من الناس فهل هى مع الغالبية أو مع الأقلية ؟!

ولمَّت نفسها وخرجت . وقابلها زوجها فإذا هى شاحبة الوجه وفى الطريق تكلما همسا ، لكنهما عندما وصلا إلى البيت وتناولا عشاء جيدا وأويا إلى المخدع أحسَّا أن كل شىء يمشى فى طريقه الطبيعى خصوصا وأن تجربة التخلص من الجنين بادية الخطر على صحتها الضعيفة .

* * *

ـــ كيف تتركين طفلا عمره عامان وتسافرين إلى الخارج ؟!

ـــ بعثة يا حبيبى .. التضحية سبيل المجد .. هكذا علَّمونى .. وعلَّموك أيضا ..

فتأوه وسأل :

ـــ لكنها سنتان يا عزيزتى ..

فأكملت فى ابتسام واعتزاز :

ـــ وأعود إليك دكتورة ..

ـــ لى الشرف . وهذا لن يغير وضعك كزوجة .. أقصد درجتك فى البيت . وكان واجبا أن نتأخر ما دمت تضمرين نية السفر .

التضحية سبيل المجد . هكذا علموني ؟؟؟

ـــ الذى حدث كان مفاجأة مثل مفاجأة الحمل تماما .. دكتور أخبرنى بهذا .. ودكتور أخبرنى بهذا .. والمسألة مؤلمة فى الأول وكل شيء يعتاد ..

* * *

بدرت من عينيه دمعة . كان لا يزال فى السيارة يحملق فى جمرة السيجارة فى يد السائق . وعندئذ أتاه صوت السواق يسأل :

ـــ هل تحب أن نصل عن طريق هذا الشارع أو تفضل إن نصل عن طريق هذا الشارع ..

فرد الزوج بإهمال :

ـــ كله يوصل ..

فاستطرد السائق :

ـــ لك حق . المهم السلامة . وأنا الآخر أريد أن « أجرِّش » العربة بعد هذا المشوار ..

وأحس الزوج أن السائق يستدر كلامه . عنده شيء يثقل صدره ويريد أن يفيض به لأى إنسان . ومن الخير أن يكون غريبا . فسأل الزوج السواق :

ـــ لماذا ؟ الوقت لا يزال مبكرا .

فتنهد السائق :

ـــ لا .. أصل الست تعبانة .. « أجرش » بدرى من أجل خاطرها .

ـــ عندك أولاد ؟

ـــ نعم . لكني أشعر إذا مرضت هى أن أولادى كلهم مرضى .. لماذا ؟

وعندئذ هتف الراكب :

ـــ وصلنا .. الباب إلى اليمين !!

* * *

وجد مصعد العمارة معطلا . استجمع قواه وصعد السلم فى هدوء . كل درجة كانت تحدثه عنها . كأنما صبَّاها معا ووضعاها هنا معا .. « ماذا تفعل بنا الساعات » ووقف على البسطة الأولى ليستريح . ومن خلال الأبواب ولو أن الوقت متأخر كانت تفوح رائحة (الأمن) .

وعند البسطة الثانية سمع صوت أم تنادى . وعند الثالثة كان السكون شاملا . كانت الأشياء نائمة .. حتى صفائح القمامة استلقت حولها القطط .. لا تموء !!

ودق الجرس . جرس باب شقته . فلم يسارع أحد بأن يفتح .. كانت الخادمة فى الداخل . وعندئذ رجح أنها نامت فأخرج من جيبه مفتاحا وفتح . ودخل متسللا . لكنه ما لبث أن سمع هناك ضحكة .. لرجل .. فارتاع .

لكنه وجد الخادمة في الطريق إلى الباب وعلى وجهها طمأنينة سعيدة وبادرته قائلة :

ـــ أخى هنا . وصل أمس بعد سفرك إلى الإسكندرية

وتنهد الرجل وقابله بالترحاب ثم سأل عن ابنه :

ــ أين (وجدى) يا دادا ...؟

ــ فى الفراش . نام فى الساعة المحددة كالعادة . حسب الجدول .

دخل الأب وألقى نظرة سريعة على الفراش ثم عاد ليقابل الشاب الريفى الذى نزل منذ الأمس ضيفا على أخته وقرر أن يعطيه أكثر مما يطلب من أجل البسمة الصافية التى تحلى شفتى (وجدى) ابنه ..

لكنه وجد شيئا لم يكن يتوقعه ..

كل شىء محزوم .. كل شىء يخص هذه الفتاة .. إنها ستسافر هى الأخرى فى « بعثة » لكنها داخلية .. كانت تحلم بها بطريقة أشد شوقا وواقعية من حلم تلك السيدة التى سافرت ، بأبراج الجامعة الأخرى فى الخارج وبرسالة الدكتوراه ... رسالة الزواج فى القرية !!

* * *

أراد أن يقول شيئا ولكنه لم يجد . ولما كان لا بد له من النطق فقد نطق . لكنه تمتم وهمهم . وفرَّ إلى الداخل حيث يرقد وجدى فى فراشه .. مال عليه وقبَّله .. أى عذاب !!

وتذكر أمه التى لا تزال فى البحر. فى طريقها للحصول على الدكتوراه فى « التربية وعلم النفس » ..

نظرة عبر الحقول

بقية الحقول وقد زحفت عليها المساكن يراها ممتدة أمام عينيه . جرداء خاوية فيها نباتات لا تزال تقاوم على قنوات جف من قاعها الماء .. وجنادب تصرصر تحت النجوم وهو ينظر من نافذة جانبية وظهره إلى الباب كأنما يتسمع بآذان فيه تلك النقرة القلقة المستعجلة التى تعلن عودة أمه .

إنه يتذكر حوادث اليوم المنصرم . وعبير شهر « مارس » يأتى إليه صافيا كأنه تخطى الحدائق أحيانا وأحيانا أكثر يحمل إليه رائحة ماء الغسيل ووقود الأفران والمطابخ من هذا الحى الذى يضم طائفة واحدة من العمال .. هم سائقو وكمسارية الترام وهو ابن أحدهم . صورة أبيه على الحائط بملابسه الرسمية لا تزال معلقة تفيض بالشباب والأمل التقطها لنفسه ثم كبَّرها وبروزها عقب تسلمه عمله .. وعلَّقها على حائط كل مسكن سكنوه ..

أمه لم تعد حتى الآن ..

ونقرتها المتعجلة على الباب لم تقع بعد وهو لا يزال تحت وطأة ذكريات يوم ولَّى . وهو ينظر إلى هذه الأرض الفضاء بعين عاتبة كأنه يحملها بعض أوزار ما أصابه .

* * *

كان يصعد سلم المدرسة فى هذا اليوم وكل التلاميذ وراءه لأنه أول طالب فى الطابور بحكم طوله بينهم ، ولم يكن فى تمام وعيه . يكاد يترنح من النوم لأنه لم ينم طول ليلة أمس من صوت بات يزعجه .

وبعد بضع درجات صعدها سمع ثلاثة خلفه مباشرة يضحكون ضحكة لم تستر ما فيها من سخرية . وأنكر أول الأمر أن يكون هو هدفا لهذه الضحكة لكنها حين تكررت لوى عنقه ونظر إليهم فضبط فى أعينهم ما أكَّد شكوكه .

وانتهى الأمر وتفرقوا فى المقاعد وجلس فى مكانه المعتاد فى الركن الأيمن من الفصل .

ولم يدر لماذا استمرأ اليوم جلسته . أحس كأن مقعده مبطن بالقطن .. أحس أن الخشب ليِّن وأن ملتقى الحائطين إلى جواره يكون ركنا هادئا منقطع النظير . لا يصل إليه شرح ولا نقاش ولا حتى صوت الجرس إن دق ..

عاودته هذه الفكرة وهو ينظر من النافذة الجانبية عبر الحقول وفى النسيم شىء من الرطوبة وفى العين شىء من الفتور . وإخوته راقدون على حشية مفروشة على الأرض فى مكان مقابل لصوان الملابس ذى المرايا الخارجية . وعندما حانت منه التفاتة رأى فى المرآة خيال الحشية المفروشة وعليها النائمون وقد تضاعف عددهم فخيل إليه أنهم ستة فشعر بالخوف وألقى نظرة على صورة أبيه بالبذلة الرسمية ووجهه النشوان بخمر الشباب .

وكاد يتصور أنه ينظر إليهم من آعلى نظرة الراعى الذى لا يغفل .

ثم عاد يتسمع إلى طرقة الباب المألوفة حين تأتى أمه . ولما تأخرت عن الميعاد عاد هو إلى ما كان فيه .

فهو الآن فى الحصة الثالثة من يومه المدرسى وقد أحاط به الدفء وشاع فيه الخمول . صوت المدرس يأتى إليه متقطعا كأنه من راديو على موجة غير مضبوطة .. أو يد تعبث بالمفتاح . لكنه على كل حال ينقله من منطقة إلى منطقة . نور وظلام على التعاقب . وعندما يصير فى الظلام يستشعر طمأنينة أكبر .. من خلالها رأى ليلته الماضية رأى العين . وسمع الصوت الذى حرمه النوم حتى الفجر يتصل وينفصل بصوت المدرس لكن هذا الصوت تحول فجأة إلى صوت جديد أشبه ما يكون ببلونة تفرقع أفاق عليها من نشوته أو من خموله فإذا بها منبعثة من خده والمدرس واقف أمامه بعد أن لطمه ليستيقظ وقفة من فرغ من عمل لا يحبه ودوت ضحكات التلاميذ . وتلفت حول نفسه بحركة من يستطلع مكانا لكن يد المدرس قادته برفق إلى حيث يجب أن يكون وأخرجه من مقعده قائلا له :

ـــ اذهب إلى دورة المياه وصب على رأسك ماء ثم ارجع .. يا كسلان !.

وشيعته ضحكات آلمته أشد الإيلام ليس فيها طلاقة وصفاء هذه الضحكات التى تأتى الآن من بيوت الجيران عبر النوافذ

الفرحة بالنور الجديد فقد وصلت الكهربة أخيرا إلى هذا الحى المنعزل وإن لم تدخل حتى الآن هذا البيت الذى يسكنه .

* * *

وألقى نظرة إلى أخوته النائمين وعاد ينظر إلى الفضاء .

« ماذا تقول هذه الجنادب » ؟!

وسأل نفسه هذا السؤال وجعل يتصور أنها شكوى أو مناجاة فليس صوت يصدر من حي بدون دافع . وخيل إليه أن نقرات أمه القلقة قد رنَّت على الباب لكن سرعان ما تبين أن هذا وهم ..

ونظر إلى مكان الحشية المفروشة على الأرض والتى ينظر إليها أبوه من عليائه . من خلال البرواز المذهب الذى يحيط بالصورة . لقد كان منذ شهر فى مكان هذه الحشية سرير من النحاس .. باعوه .. عليه ذكريات أبيه رحمه الله . ولم يلبث أن نقله نحاس السرير بلمعانه إلى دورة المياه فى المدرسة من جديد . ساعة وقف فيها صباح اليوم الماضى بعد أن طرده المدرس من الفصل . لم يدر لماذا رأى شبها عظيما بين إحدى الحنفيات النحاسية الصفراء وبين السرير النحاسى الذى كانوا يملكونه شبه من علاقة الأقارب .. رأى ذلا يخيم على معدن السرير كأنه مغترب حين حمله « البياع » ذلّا قريب الشبه جدا من إطراق هذه الحنفية التى تتسرب منها نقط كأنها دموع .. كأن اليد التى طرقت هذا السرير قد صنعت هذه الحنفية من سبيكة واحدة وفى موضع السرير فراغ

يطل عليه الأب .. وحول الحنفيات كلها سكون جعله واقفا يفكر .. « لماذا أنام فى الفصل فأصبح ضحكة للتلاميذ ولماذا كانوا يضحكون منى وأنا صاعد السلالم ؟! » .

وببديهة الذى يبحث وضع يده على البنطلون من الخلف فأحس بقطع كبير فيه . عندئذ ذهب عجبه. لكنه طاف فى مكان آخر .. ما سبب هذا القطع ؟!

ودخل إلى المرحاض حيث استطاع أن يعاين ويرى . فإذا بخرق كبير على مقربة من نهاية فخذه لو رأته أمه . هى نفسها ــ وهو يصعد السلم لضحكت منه مثلما فعل التلاميذ .

* * *

إخوته الثلاثة ينامون على الحشية وهو واقف . لم تعد أمه حتى لآن . وشعر أن الجو قد بدأ يتغير فحمل إليه شحنة من الرطوبة . وسكنت الجنادب كأنها استغرقت فى النوم فأقفل نافذته وأخذ مجلسه على المنضدة الصغيرة التى تذكره دائما بمناضد الامتحانات وجلس يذاكر فى موضع يستطيع فيه أن يرى الحجرة من جميع نواحيها . ظهره إلى الباب وإلى اليمين الإخوة على الحشية والأب من أعلى ينظر إليهم وعلى مرأى منه فى ركن مقابل شماعة تحمل ملابسهم جميعا وبين هذه الملابس تتدلى بنطلونات لأعمار متفاوتة ليس فيها ملابس نسوية سوى قميص أزرق بلا أزهار لأمه التى لم تعد حتى الآن .

بين يديه كتاب التاريخ والمصباح على مقربة منه وهناك صورة لصلاح الدين تملأ الصفحة حملق فيها بإعجاب بُرغُم متفتح عطشان دائما لصور البطولات . وحضرته صورة المدرس حين يندمج فى دوره فى وصف المعارك فيفقد كثيرا من وقاره ويكاد يتواثب وهم فى كراسى الدرس يحركون أرجلهم كأنهم يحنُّون إلى ظهور الخيل .. أيامها .

ولم يلبث أن سبح خياله حتى وصل إلى صورة الدم .. فعض شفته وأفاق .. نظر كسيرا خلوًّا من الحماسة إلى صورة أبيه فى بروازها المذهب .. وهز كتفه .. كان يقول فى نفسه : « وهل نجا هذا الرجل من المصير الدامى ؟! فقد كان مجرد قاطع تذاكر فى ترام القاهرة . » .

وتذكر تاريخ والده القصير . حكى لهم أن أمه « جدتهم » بحَّت من الزغاريد يوم أعفى من الخدمة العسكرية أيام الملك لا لأنه كان راعيا لأمه الأرملة مثلا أو لسبب آخر .. لا بل لأنه كان قصيرا . وبعدها بقليل لبس البدلة الرسمية التى يرتديها الآن فى الصورة أمام عينيه . ثم تزوج .. وبعد الطفل الرابع لحقه مصيره الدامى اجتاحه حيوان جامح كان يجر إحدى العربات فى الشارع والأب على سلم الترام يزاول عمله فسقط بين العربتين .

« لماذا لم تعد أمى حتى الآن ؟! » .

ونظر بعينين دامعتين إلى الصورة المعلقة .. ثم إلى بنطلونه

المقطوع وإلى قميص أمه المتدلى فى ذبول مجاورا لأصغر بنطلون كأنه يحميه ..

« ستجد أمى مشكلة هذا البنطلون عندما تعود » .

وأطرق شاعرا بالخجل . ونظر إلى صورة أبيه وشعر بنوع جديد من الخجل .. حقيقة أنه يشعر بأنه لا أحد يختار موضع ميلاده ولا اسمه ولا لون أبويه .. ولا أحد أيضا يختار نوع الموت فى الغالب .. لكنه يشعر أيضا بالفرق العظيم بين جثة رجل يصبغها بالدم جموح حيوان وبين جثة رجل يموت .. هكذا .. بطلا .

وعاد ينظر إلى صورة صلاح الدين ، ويتخيل أن أباه مات تحت رايته . ولم يكن هناك رابط بين الأمنيتين إلا أن أباه مات مقتولا وكانت أمه تخجل من سرد تفاصيل الواقعة .

ثم أطرق على المنضدة . فرش ذراعيه عليها ووضع جبينه . عاودته فى هذه اللحظة تفاصيل المشاعر التى غمرته فى الفصل وقت الصباح .. الحذر والسكون والصوت المتقطع .. لكنه ما لبث أن رفع رأسه . حانت منه التفاتة إلى إخوته الراقدين . على وجوههم أحلام فى غموض الليالى . ونظرة أبيهم تجتاز من فوقهم إلى حيث مرايا الصوان فتقع هناك لتسبح فى فضاء أوسع . أمهم تنام إلى جوارهم بعد أن تعود من العمل . وكم رأى هو هذا المنظر فى ليالى الأرق .. ذلك الذى يسببه له حتى الآن صوت متعب يخرز أعصابه ويمزقها ويعذبه ويسبب له الخسائر ونظرة أبيه فى

الصورة تسبح فى فضاء الغرفة .. وهو يتنهد ..

ثم أخذ يتصفح كتاب التاريخ .. فراعه أن شيئا ما قد وقع فيه .. هناك صفحة وخريطة قد لحقهما التلف .. وذهل .. ونظر إلى بنطلونه المقطوع المتدلى فى انتظار الإصلاح على مقربة من قميص أمه . تلك التى لم تعد حتى الساعة .

وشدَّته من أجوائه المختلفة نقرات أمه على الباب .. فتح . دخلت وعلى وجهها علامات تعب لا يخفى حبورا . وفى يدها لفة كبيرة لم تفتحها قبل أن تهيب بالنائمين أن يستيقظوا ..

ـــ « ماذا يا ماما ؟! » .

ـــ تأخرت .. لكن .. هذه أشياء تكفِّر عن غيابى .. ساعدنى فى إيقاظ إخوتك .

وفعل . وفتحت الأم اللفة التى حملتها . كان فيها جاتوه وبسكويت . أشياء تخلَّفت من حفل أقيم فى الملجأ الذى تعمل فيه .. قسِّم على من هناك بالتساوى .. ومن أجل هذا الحفَل تأخرت وعادت تملؤها الفرحة .

كان الصغار يأكلون فى سعادة وفى عيونهم نوم . أما هو فكان فى انتظار اللحظة التى تقنع نفسه فيها بحمل نبأ البنطلون إليها . فمحال أن يذهب به غدا إلى المدرسة هكذا . وكان مترددا كأنما عزَّ عليه أن يفسد عليها وهلات سعادتها تلك الليلة وهى تنظر إلى بنائها الفرحين بالهدية . لكنه بعد أن انتهى العشاء وناموا .. قال

لها قبل أن تستغرق فى نومها والظلام مخيم على الغرفة :

ــ بنطلونى قد قرضه الفأر الذى قرض أعصابى ولن أستطيع الذهاب به إلى المدرسة يا ماما !! .

همهمت فى الظلام بمنطق من لا يتقبل الهزائم :

ــ فى الصباح سأدبِّر الأمر .

سكت قليلا وكأنه ظل يعانى ولم يخفف من حدة ما به ما سبق أن قاله ولا ما قالته أمه فعاد يهمس :

ــ وكتاب التاريخ يا ماما ؟!

شهقت فى خوف :

ــ وماذا أصاب كتاب التاريخ يا بنى ؟!

ــ أتلفه الفأر .. قرض خريطة عليها مواقع عزيزة غالية .. عندنا .. يتكلم عنها مدرسنا الفلسطينى وعيناه مغرورقتان بالدموع . فتحت الكتاب الليلة فحزنت حين رأيت ما فعله الفأر بهذه الأماكن .

قالت الأم بعد صمت طويل تسمع فيه نجوى النفس :

ــ إذن لم يعد الأمر مقصورا على الطعام والملابس .

ــ لو اشتريت المصيدة كما وعدت ما وصل الأمر إلى هذا الحد .

ــ ربما كان كلامك فى محله لكننى أقدِّم شيئا عن شيء .

كان مترددا كأنما عز عليه أن يتلف عليها لحظات سعادتها الليلة

كان مترددا كأنما عز عليه أن يتلف عليها لحظات سعادتها الليلة

ـــ وأنا فى معظم الليالى لا أنام من صوت قرضه .. إنه سيأكل خشب الدولاب يا ماما !! لا يجب أن ننتظر ..

ـــ هل تريد الحق ؟.. عليك أن تتربص له فهذا دورك . يكفينى أننى حللت محل أبيك فى كسب عيشنا ، وعليك أنت أن تدافع عن ثيابك .. وعن كتبك وفى الصباح نتدبر الأمر من جديد .

علينا أن نستريح ... لنفكر ..

لكن الغلام لم ينم طول الليل ..

حلم الأب

حين استدعاه مدير الفرقة نهض مسرعا واتجه نحو مكتبه . وفى الدهليز المستطيل الذى تحف بجانبيه نباتات ظلّية التفّت حول أعمدة عربية الطراز ــ أخذ هذا الممثل الشاب يفكر فيما عسى أن يقال له . وخمَّن مقدما ما يمكن أن يقال .. « كلمة ثناء وتشجيع حتما » وربما كلمات يفوح عبيرها مع رائحة السيجار المعطر الذى يحترق باستمرار في حجرة المدير .

وفى السقف .. سقف الممر .. مصابيح على هيئة نجوم تعلقت بها عينا الشاب لحظة ثم هبطت إلى الأرض حيث النباتات المتسلقة تلتف حول الأعمدة . وأخذ طريقه إلى هناك لا يسمع خطواته فقد كان يدوس بحذائه المخروق على مشّاية من السجاد الداكن .

حجرة المدير كعهده بها واسعة أنيقة . وأمام مكتبه مباشرة كرسيان مريحان لجلوس من يجب أن يكون على مقربة منه ونفذت إلى أنفه كالعادة رائحة السيجار كيد معطرة كتمت أنفاسه لبرهة ثم أفاق . والمدير وراء المكتب بملامحه المنهوكة بابتسامته المنسية .

وجلس الشاب على أحد الكراسى القريبة من المكتب فى امتثال مؤمن . فقد كان يعتقد أنه من العبث أن تطابق أعمال

الناس أفكار الفرد . فهو (واحد) يعامل مجموعا كبيرا وهو كواحد لا بد أنه يحمل نظرة محددة نسجها الماضى والحاضر ولمسها المستقبل . أما هم كمجموع .. الناس .. فلا يمكن أن يكونوا عدة آلاف من الأجسام تحمل رأسا واحدا يفكر مثلما يفكر (الفرد) لذلك فلم يعنه كثيرا أن يبخس حقا . وكانت كلمة الثناء ترضيه ولو أنه يعلم أن هذا الثناء وسيلة ، أو خديعة ، أو تعويض . أما إذا كان الثناء مطلوبا لذاته فإن الناس لا شك يبخلون به .. إلا فى حفلات التأبين ..

دارت هذه الأفكار فى رأسه وعيناه مثبتتان علي دبوس مذهب فى رباط العنق الذى يلبسه المدير . والدبوس على هيئة تمساح .. ولم يلبث المدير أن اعتدل فى جلسته ليقول للشاب :

ـــ اسمع يا بنى .. عندى خبر سار لك ..

خفق قلب الشاب لأنه يطالب بعلاوة منذ سنة . ووقع بينه وبين المدير نقاش لم يكن خاليا من المرارة . فقد لفت المدير نظره إلى قناعة الفنان وإلى أنها إحدى السمات الخلقية التى تستوجب التقدم وتكفل المستقبل . وإلى أن « الألم هو النبع السحرى الذي يروى نفوس الفنانين » وكان عليه يومئذ أن يقتنع لأن الاقتناع قد لا يكون تقبلا عقليا فقط وإنما قد يكون أيضا نوعا من الامتثال يقبله العقل بعد فترة .. وها هو ذا اليوم يستمع إليه .

ـــ عندى لك خبر سار .

لم يرد عليه بل فرك كفا بكف وابتسم فى رضا . واستشعر

الدفء من كل جانب .. من مدافىء الحجرة .. وراحة طارئة أحلى من المدافىء . وكأنما لذ للمدير أن ينظر طويلا إلى هذا الذى صفق له الجمهور وهو الآن بين مخالبه المعنوية ينفخ دخانه على مقربة منه فيرسب حول وجه الشاب كبقية ضباب .

وما لبث المدير أن غير وضعه ومال إلى الأمام ليقول له :

ـــ خذ هذا الخطاب واقرأه ..

أمسك الشاب بالخطاب ففاحت منه رائحة البؤس ؛ لأنه كان تقريرا لواقع قديم منتظر بين شهر وشهر . فهذا زميله فى الفرقة قد لزم المستشفى . ولن يكون الخبر السار إلا خبر (ميراثه) لكن .. ما الذى سيرثه عنه يا ترى ؟!.. إنه لا يملك شيئا يوصى به لأحد .. لا يملك إلا موهبة يصفق لها الناس وهذه الموهبة لا تورث ولا يوصى بها . وحتى إذا بيعت فإنها تفتح القلوب ولا تفتح الجيوب .

ونطق الشاب فى حسرة :

ـــ مؤسف جدا يا سيدى أن يتوقف هذا الصديق عن العمل .

وهز رأسه ونظر إليه نظرة الفنان الذى يشمل قلبه كل الناس . وكأنه يقول له : « وهل هذا هو الخبر السار » ؟

غير أن هذا لم يغب عن فطنة المدير وبدا على وجهه المنهوك ذكاء وخبرة وسارع يقول له :

ـــ غدا إن شاء الله سنبدأ فى إجراء (بروفات) المسرحية الجديدة وستقوم أنت بالدور الذى كان منتظرا أن يقوم به

صاحبك المريض وهو دور يعتبر بعد الأول . وبناء على ذلك فأنت ستقف طويلا أمام الجمهور . وهكذا ستجد فرصة أخرى للتقدم نحو مرتبة النجوم . وكلنا نعرف أنك وصديقك هذا من مزاج واحد وهذا هو ما أكده (المخرج) . لذلك فهو يرى ـــ دائما ـــ أن واحدا منكما يغنى عن الآخر (وأردف فى ضحكة) وكأن القدر أصدر حكما مكررا يوم خلقتما . فقد كان واحد منكما كافيا .. (ثم ضحك مرحا) .

كان الشاب يسمع وهو مطرق . ويعجب مما يسمع . لكن .. ليس هنا مجال للنقاش . هنا مجال للعمل .. وقبل أن يقول كلمة كانت على طرف لسانه أعلن المدير انتهاء المناقشة .. وكانت معروفة عند أعضاء الفرقة وهى كلمة « متشكر » يقولها خطفا ثم يمسك بعدها بسماعة التليفون الخاص .

* * *

« أحد رؤساء القبائل فى الصحراء حلم ذات ليلة أن بيته الذى يسكنه أصبح واقعا فى وسط حديقة غناء وأن الماء يجرى فى جداولها بغزارة وأنه أحس بالظمأ فى منامه فسعى نحو أحد هذه الجداول ليشرب لكنه سقط ميتا وهو عند حافة الجدول .

ولما قص رؤياه على ابنه الوحيد الذى يحبه ويعتبره أخا وأبا لم يهتم كثيرا بالأمر . وكانا ساعتئذ على العشاء . وناما .. وأصبح الصباح فإذا بالابن يستيقظ على صرخة أمه التى تحمل إليه خبر وفاة أبيه .

وتجتمع القبائل للاحتفال بدفن هذا الرجل الطيب الذى كان بينهم بمثابة قلب عاقل وسط هذه الحياة القاسية .. تلك التى تحتم فيها ظروفها على كثير من الناس أن يكونوا أشرارا بقدر ما هم بسطاء . وبعد انتهاء المراسيم . بدأ الابن يشعر بحزن غريب ألجأه إلى الوحدة وكاد أمل الناس فيه أن يخيب وهو الذى كان أملهم الثاني بعد موت الأب . لكن الابن فى كل ليلة كان يربط بين الموت والحلم . فلماذا مات أبوه فى الليلة الثانية . فهل تحقق شطر من الحلم يستوجب تحقق الشطر الآخر ؟!

وهكذا بدأ يسأل نفسه وهو لائذ بالوحدة : هل تقع دارهم هذه وسط حديقة غنَّاء ؟.. غير أنها لم توجد بعد فى عالم الحقيقة وإن كانت موجودة بالفعل فى عالم الإمكان ؟!

وبمرور الأيام بدأ يرى ما لا يراه الناس . وبحكم أنه كان يرى أباه في المنام معظم الليالى فإنه صار يرى حلمه نفسه .. حلم أبيه . فأصبحت هذه الرؤيا إحدى سمات أحلام الابن حين يقابل أباه فى المنام . شيء ملازم لشخص الأب كأنه جلبابه . ثم استقل الحلم عن صاحبه وأصبح له شخصية منفردة فلم يعد الابن يرى والده مع حلمه بل أمسى يرى الحلم بدون والده وبذلك أصبح حلمه الشخصى بعد حين . ولما ألح هذا الخاطر عليه بدأ يعمل شيئا عجب له الناس أشد العجب . بدأ يحفر ليبحث عن الماء والناس يعجبون لما يفعل » .

* * *

ثم استقل الحلم عن صاحبه وأصبح له شخصية منفردة

من بين أدوار هذه القصة أخذ الممثل الشاب دورا جديدا .

وبدت أمام الجمهور على المسرح صحراء بلا جنة ممدودة فى اتساع شاسع . وأمام البيوت ــ وهى على الأفق ــ أكوام من التراب تدل على أن فى المكان حفرا وبحثا وتنقيبا .

وعندما ظهر الممثل الشاب ليؤدى دور من يريد أن يحقق حلم أبيه راعه مظهر المسرح . وكان عليه أن يقف برهة وحيدا فى المكان ليلتفت باحثا عن صديقه (بسَّام) الذى يعتبره عضدا له فى هذه المهمة التى يلومه عليها الناس .

وفى هذه اللحظة رأى الصمت يخيم على المشهد المصنوع بمهارة على المسرح ورأى الصمت جاثما تماما على الشرفات والمقاعد ولا تفوح ــ كما هى العادة ــ رائحة عطور ولا سجاير . وفى هذه الليلة الأولى للعرض خيل إليه وهو واقف يتلفت حتى يظهر صديقه أنه يشم رائحة تراب حادة كالتى تفوح من صفحات كتاب طوى عدة سنين حتى كاد يعطس . فتماسك .. حتى .. لا يضحك الجمهور .. وكأنما رائحة التراب قد انتشرت من الحفر فى الديكور ومن أرض المسرح الذى خيل إليه أنه لم يكنس منذ أشهر .

وكان الملقن تحت (الكمبوشة) يبدو مثقلا بالنوم فأحس الممثل الشاب أنه واقف على حافة هاوية . ونظر إلى الحفر المصنوعة على أفق المسرح وإلى السماء التى تسقط بعيدا عن الرمال راسمة دائرة الأفق فشعر أنه فى متاهة .

وعند ذلك رأى الشاب شبها عجيبا بين جو المسرح الحقيقى وبين الدور الذى سيقوم به ممثلا له . وما دام مقتنعا بدوره فعليه إذن أن يعزل نفسه عن كل مؤثر خارجى يهدم تصميمه . عليه إذن أن يتخيل .. فعمله كله قائم على الخيال . عليه أن يزج بنفسه من جديد فى عالم الطفولة أو أن يقف على أبواب عالم المجانين فيرى المسرح مليئا بالناس .. هل يعجز خياله عن ملء هذه الكراسى بالجالسين وأن يستشعر رائحة العطور والسجاير ما دام هذا كفيلا بإنجاح دوره ؟!

وبكل يقين ـــ كالشخصية التى يمثلها ـــ نادى بصوت عال فوفد إليه صديقه الذى دخل مهرولا كأنه يحمل إليه خبرا هاما وقال :

ـــ الناس غير مقتنعين بعملك هذا . إنك تبدد جهدك ولا يراك أحد ..

وعندئذ وقعت عين الممثل الثانى ـــ الذى قال هذا ـــ على الشرفات الخالية فكاد يتهاوى وشعر بيأس من ينادى فيجاوبه الصدى وعلى غير انتظار . لكنه ما لبث أن نظر إلى الممثل الأول فرآه منتفشا كالديك المزهو بريشه . يخطو على المسرح بيقين وينظر إلى أعمال الحفر . ويشير إليها باعتزاز وهو يمسح عرقه باليد الأخرى وأخذ يهتف :

ـــ لكن علينا أن نؤدى دورنا ولو لم يرنا الناس .. هناك أحلام لا تكذب .. وحلم أبى من بينها . وهذه الحفر التى تراها هى

أشبه بسفينة نوح يسخر منها الجاهلون ومن لا يعرفون الحقيقة . ومن أجل حفظ الجنس البشرى بنيت السفينة . ولو نجحت السخرية لهلك الجنس البشرى وخربت الأرض .

ــ لكن تشجيع الناس يا صديقى بند من بنود العمل ذاته وليس شيئا خارجا عنه .. و .. ها أنت ذا ترى ..

وأشار بيده إلى الحفر . وانتقلت يده فجأة إلى الشرفات الخالية . لكنه رأى الممثل الأول واقعا تماما تحت سحر الدور الذى يقوم به وسمعه يهتف وهو يخطو على المسرح فى خيلاء من تراه ملايين العيون وتصفق له ملايين الأكف ..

ــ أنا لا أريد أن أكون ساحرا حصيلة أعمالى إعجاب أبله . ولكنى أريد أن أكون عاملا حصيلة أعمالى بناء ينسى بانيه ويعيش المبنى جيلا بعد جيل . والعد يبدأ (بواحد) والأعمال الجادة يقتنع بها القلة ثم يتكاثرون وقد لا يكونون من جيل واحد . وبعض الأحلام وحى . وحلم أبى بعض هذه الأحلام .

وعند ذلك خيل إليه أنه يسمع تصفيقا فنظر إلى الشرفات والتمعت فى عينيه الفرحة . ورأى صديقه بريق عينيه فسرت العدوى إليه مثلما تسرى عدوى الغناء من الصوت العظيم إلى كل السامعين . وانفصل بذلك الممثلان عن عالمهما الأصلى وبدءا يتحركان كشخوص الأساطير . وأفاق الملقن من خموله فأخذ يرمى بالكلمات فى حماسة العبّاد يرتلون دعاء . وبدا عالمهم

يموج ليس بسحر الفن وحده بل بسحر العقيدة .. عقيدة أن يؤمن كل بذوره فليس هناك فرق بين المسرح الصغير فى قرية والمسرح الكبير فى مدينة والمسرح الأعظم الذى يشمل الأرض كلها ..

وبدت الصحراء على المسرح وكأنما تحولت إلى جنة . إذ استطاع الممثلان اللذان اعتنقا دورهما أن يريا الحلم وقد تحقق . وكان آخر ما هتف به الممثل الأول أن قال بحماس وبصوت مرتفع :

ـــ انظر .. انظر يا صديقى .. هذا هو الماء قد تفجر من الحفر .. ما أروع هذا .. إنه يبدو فى غزارة مياه الأنهار .. انظر .. لم يبق لنا إلا أن نزرع ..

وعندئذ وضع الممثل كفيه على أذنيه لأنه خيل إليه أن التصفيق يدوى كأزيز قريب من الأذنين .

* * *

ولم يدر بعد ذلك بما حدث . فقد ألفى نفسه ممددا على أريكة فى حجرة المدير . وأفاق على رائحة الدخان المعطر . وعندئذ قال له الرجل بوجه بشوش :

ـــ كنت فى خلفية المسرح ورأيت كل شىء .. رأيت أنك

مقتنع بدورك على المسرح وأنت تمثل دور شاب مقتنع بدوره فى الحياة . فنجحت . بصرف النظر عن كل شيء . وأنا واثق أن العدد القليل الذى شاهدك الليلة سيكون (شاهدا) عادلا يسمع إليه الجمهور . وغدا مساء ستغص الشرفات بالناس . وهذه هى تجربتى من قديم . وغدا ترى أيها الشاب الرائع ..!

ستعود الابتسامة

الموسم موسم عواصف .. ومع كلٍّ فالطبيعة لا تعترف بالاستقرار .. فكان عليه أن يركب القارب هو وأخوه وينزلا إلى البحر .. أخوه أصغر منه ويريد أن يتزوج عاجلا . وكل هموم الأسرة فى هذه الفترة هى تدبير أكبر مبلغ من المال لأجل حياة مستقرة فى بيت مستقل لهذا الشقيق الصغير ..

هما يعْلمان أنهما يبذلان جهدا أكثر من المألوف . لكن جهدهما كان موضع إعجاب الصيادين جميعا حتى بدا القارب الذى ينزلان به إلى البحر وكأنه قد اكتسى ملامح إنسان .. شجاع .. مفكر .. لا تحكمه الدفّة والشراع والمجاديف بل يحكمه شيء أعلى من كل هذا . وهكذا بدا القارب لعيون الصيادين لكثرة ما يعود به من خيرات والشقيقان عليه متعبان لكن ابتسامة ما تتلاعب تحت الشوارب المهملة يكمن فيها سر سعادة لا يعرفها إلا المتعبون .

* * *

البحر بادى السكينة فى هذه اللحظة التى يدلف القارب فيها إلى الماء . بلونه الأزرق فى لون السماء والماء معا . طلى حديثا بالزيت وانعكست عليه أشعة الشمس المائلة نحو الغروب فبدا لعين الشقيق الأصغر وكأنه (عريس) مثله يتهادى على الصفحة

الهادئة . وخيل إليه أيضا ـــ إلى الشقيق الصغير ـــ أن هذا البحر يحمل اليوم قلبا مثل قلب الإنسان يعرف عن طريق لغة سحرية ما تنوء به قلوب الآخرين . وعن طريق قلبه هذا سيعطى الجائع سمكا ويعطى العريس مهرا وربما ـــ بطريقة قد يعرفها الصياد ـــ يعطى العطشان ماء !!

وهكذا دلف الشقيقان نحو الماء . وتوغل بهما القارب . وبدأت الشباك تعمل . وأصوات الصيادين من حولهما تتناغى فى كل اتجاه .. أغنية أو تحية ترسل بالأيدى أو الصفير بالفم . والهواء يحمل مع رائحة التحيات رائحة البحر والأعشاب ثم تلك الرائحة التقليدية التى تفوح من الشباك والقوارب والتى ألفتها أنوف الصيادين حتى كادت لا تشعر بها .

وكان سيرهما دائما إلى الأمام . وكانت الشباك تخرج من الماء فى كل مرة بمزيد من الرزق . وأخذ الشقيق الأصغر يغنى . أغنية حب نابعة من موطنهما الأصلى عرف سرها وروحها وجرَّبها الشقيقِ الأكبر فابتسم له وشاركه غناءه بصوت أجش يوحى بالجهد والتعب ..

* * *

ولم يفطن الشقيقان إلى ما حولهما .. حتى غروب الشمس لم يفطنا إليه .. وكان هناك قمر صغير يموه بنوره صفحة البحر بدا لهما أكثر إيناسا من أضواء الشاطىء لأنها بالنسبة لهما لم تعد

موجودة .. لقد أوغلا فى البحر كثيرا .. ولم يشعرا بأن الصيادين جميعا قد عادوا أو حاولوا أن يكونوا على مقربة من الشاطىء فإنهم ما داموا يرون نوره لا يخافون المخاطر ..

قال الشقيق الأصغر لأخيه فجأة :

ــ ألم تلاحظ شيئا ؟

فرد أخوه باطمئنان نسبى :

ــ ولكن ماذا نفعل .. ها نحن الآن فى طريقنا إلى الشاطىء .. لقد لاحظت فعلا أن الموج بدأ يرتفع ..

ــ موسم عواصف !!

فقال الأكبر :

ــ الطبيعة لا تعرف الهدوء . والغرق قد يحدث بلا عاصفة .

ثم بدا له أن يسلى شقيقه وهو أيضا عمل لا يخلو من تسلية النفس فصار يقول له :

ــ كنت بين فترة وأخرى أقول فى نفسى ما دام الرزق مواتيا فلنعمل فأخى لا يزال محتاجا إلى أشياء كثيرة .. حذاء جديد وراديو تتمتعان به أثناء السهرة لأنك لن تأخذ مغك راديو العائلة وإلا احتجّت أمنا التى لا تنام إلا على صوته وهو خافت .. وأشياء أخرى كهدايا للعروسة .. آه .. أنوار الشاطىء قد بدت .. ألا تحس بالاطمئنان ..

ولم يرد الأصغر . كان القلق مستوليا عليه وكان محقا فى ذلك . فالموج أمسى عاتيا والريح شديدة الهبوب . وكان عليهما أن يطويا الشراع وإلا انقلب القارب . وفعلا ذلك بسرعة . كانا

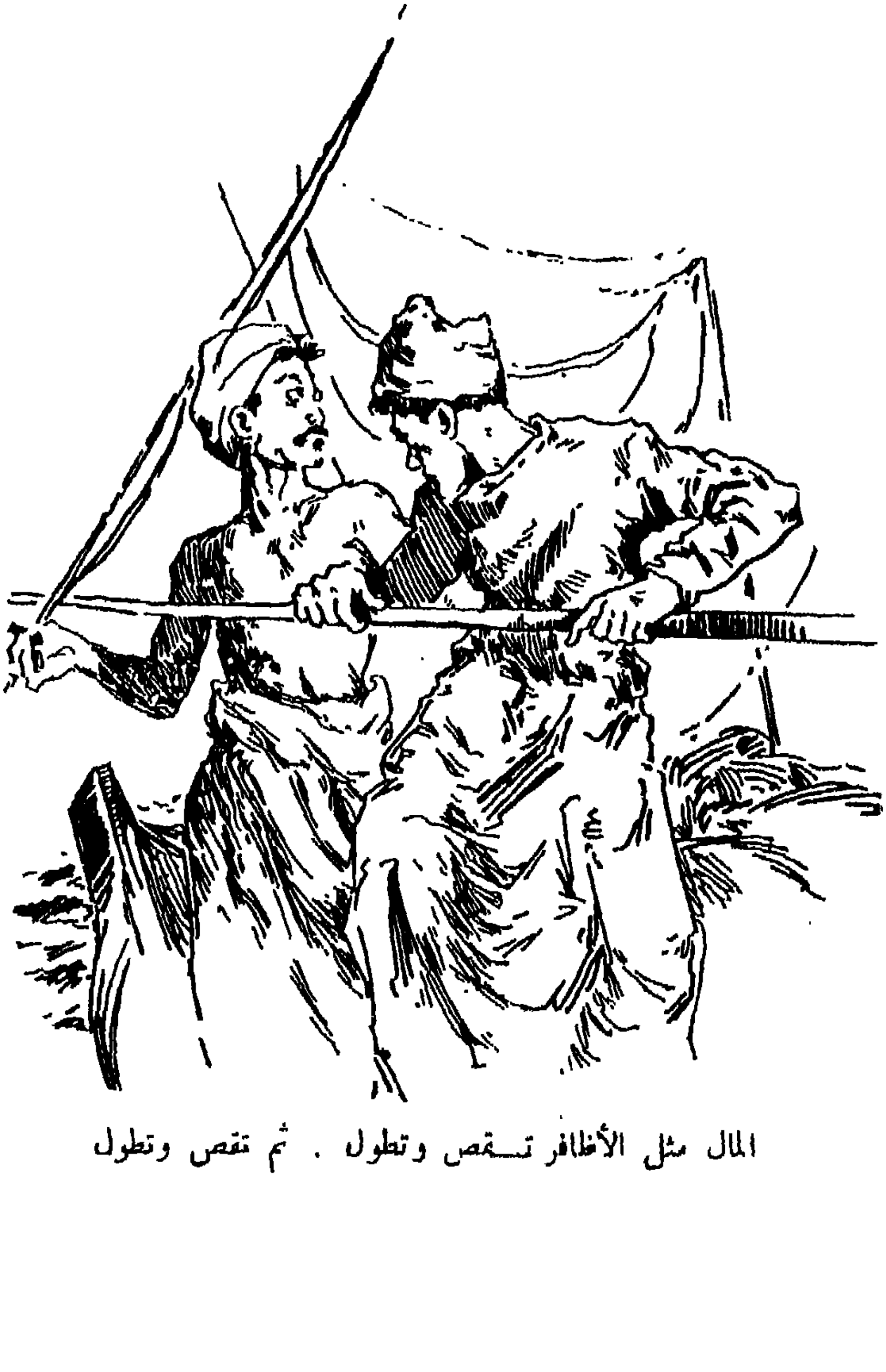

المال مثل الأظافر تــقص وتطول . ثم تقص وتطول

يشعران أنهما فى طريق كله مرتفعات ومنخفضات . وبدأ اتجاههما إلى الشاطىء يضطرب بفعل تلاطم الموج وتحول الريح لكن الأخ الأكبر أخذ يخلق فى هذه المخاطر جوّا من المحتمل أن ينسى شقيقه حقيقة الأزمة فاستطرد فى هدوء لكن بصوت مرتفع حتى يسمع أخوه :

ــ وكان ضروريا أن تهدى إلى العروسة زجاجة عطر . ذلك يعجب الفتيات .. ذلك ما أخّرنا حتى الآن .. وستأخذ هذه الزجاجة لتريها لكل صديقاتها .. هه .. لكنها لن تفتحها .. ستشمها من الخارج فقط حتى تفتحها ليلة العرس ..

ــ عم تتكلم يا أخى ؟.. إن كثيرا من السمك سقط فى الماء ..

رد الأكبر بفلسفة من عاشر البحر :

ــ نعم نعم . إننى أرى .. لكن المال كما تقول الأمثال مثل الأظافر تقص وتطول ثم تقص وتطول .. ليس مهما .. المهم أن .. آ ..

* * *

لم يسمع أحدهما صوت الآخر ؛ لأن صوت الريح كان شديد الهبوب ولأنهما كانا فى الماء .. لقد انقلب القارب . كان كل منهما يفكر وحده . كيف يوصل أفكاره إلى أخيه .. الليل والريح ضد أى نداء لكن كان فى ذهن كل منهما فكرة مهمة هى .. ألا يدعا القارب يغيب عن عيونهما . ومن حسن الحظ أن اتجاهه كان نحو الشاطىء فإن هبوب الريح

كان في هذا الاتجاه . ولذلك فلم يكن توغله فى البحر إلا بفعل موجة أو عدة موجات كانت تعوق سيره إلى الشاطىء .

وخطر للأخ الكبير خاطر بسيط لكنه كان على غاية من الأهمية . خطر له أن يحاول لمس القارب بأى طريقة ولو كلفه ذلك حياته لأنه من الجائز جدا أن تدفع به موجة إلى ناحيته فيصيب جدار القارب رأس الصياد . لكن ذلك لم يعوقه عن تنفيذ الفكرة . وحاول .. وتحسس المكان الذى يقصده من القارب فلم يجد ما يريد . وعندئذ صرخ بأعلى صوته ونادى أخاه . كان عليه أن يكون قريبا منه فإن الفكرة لا يقدر واحد بمفرده على تنفيذها . وسبح أخوه نحو القارب . كان شبابه معوانا له . وكان يعلم تماما أن حياته وحياة أخيه معلقة بالارتباط بالقارب ؛ لأنه الآن هو السبيل الوحيد الذى يوصلهما إلى الشاطىء فالسباحة وحدها ليست مضمونة العواقب فقد يصيب أحدهما التعب .

كانا يدوران حوله كأنه مركز فلك . تربطهما به جاذبية لم يستشعرا مثلها فى يوم من الأيام . حتى فى أول هذه الرحلة ساعة كان يتهادى تحت شمس آخر النهار بلونه السماوى . كان تحت الظلام والخطر أكثر جلالا وأعظم قيمة وأعلى مكانة .

وهتف الشقيق الأكبر مناديا أخاه عندما رآه يستوى راكبا فى فرح شديد على هيكل القارب ـــ هتف قائلا

ـــ ابحث عن طرف أى حبل فذلك ضرورى لنجاتنا .

ورد الأصغر

ـــ لم أجد .. ابحث أنت بدورك .

وتقدم مرة أخرى وصار يتحسس بكل ما يقدر عليه وأخيرا صرخ فى فرح :

ـــ هذا طرف حبل ..

رد شقيقه :

ـــ عظيم .. سانزل ونقود القارب معا بواسطته إلى الشاطىء . فإني أرى النور يقترب ..

ـــ لا .. ابق حيث أنت . استرح قليلا حتى إذا تعبت أنا أخذت أنت دورك فى الماء حين أكون أنا على ظهر القارب .

وسبح الأكبر . لم يكن يدرى إلا أنه فى حلم . عيناه متعلقتان بأنوار الشاطىء التى تبدو وكأنها فى الجنة . ولم يكن يحس بحقيقة المشقة لأن العمل كان ضروريا . وبعد مدة ناداه أخوه :

ـــ هل آتى لآخذ دورى ؟..

ـــ تعال ..

وأخذ دوره . أمسك بالحبل الذى كان فى يد أخيه . لكن أخاه لم يصعد إلى ظهر القارب . بل بقى فى الماء بجانب الآخر دون أن يبذل مجهودا .

وحدثت معونة لم تكن فى الحساب . فقد اشتد تدافع الموج إلى الشاطىء فكان ذلك معوانا لهما .. ولم تكن الأمواج التى وقفت ضدهما أقل معونة لهما عندما كانت فى اتجاه رحلتهما .

ولم يصدقا ما حدث عندما تم سحب القارب إلى الشاطىء .
كان الشاطىء هادئا . نظر كل منهما إلى الآخر دون أن يتكلما ثم جلسا ليستريحا . وبعد قليل فحصا القارب فوجدا التلف قليلا .. همهم أحدهما :

ــ ممكن أن يصلح كل هذا ..

وساد صمت .. لكن .. عاد صوت الصغير يقول ، وبشبه مرح غامض :

ــ إنك لم تتكلم عن السمك ..

قال الأكبر :

ــ قلت لك .. إن المال .. مثل الأظافر .. كلما قصّت عادت فطالت .. غدا .. أو بعد غد سنعود معا بشباك جديدة .. وننزل البحر .. ونغنى .. وسنعمل جهدنا على أن نشترى للعروسة زجاجتين من العطر .. بدل زجاجة واحدة .. أريد منك فقط أن تبتسم .

أشواق

كان الرجل يجهش بالبكاء بطريقة لا تتناسب مع مظهره القوى .. الدموع شىء غير مألوف بالنسبة لوجهه القاسى . وفى يده رسالة وصورة كان مأمور السجن قد قدمهما إليه لتوِّه . بعد أن اطلع عليهما كما تنص اللوائح والقوانين ..

وأخذ فك الرجل يرتعد وهو يقبل صورة غلام فى الرابعة عشرة من العمر . سمح المحيا باسم الثغر ، كأن شيئا من هموم الدنيا لم يطف بقلبه . وكأن والده ليس نزيل السجن .

وكان يبثه فى الرسالة شوقا ويطمئنه كما هى العادة المتبعة . ويخبره أنه نال الإعدادية بتفوق ، وأنه سيدخل المدارس الثانوية بإذن الله ، وعلى الصورة من الخلف إهداء لوالده يسيل حبًّا ورقة .

وانتقل خيال المأمور إلى الرجل فى نفس الليلة لكى يسهر معه ويتصور أى سرور وحنين يحيطان بقلب هذا الأب . ثم تذكر شخصيته . إنه يعرفه تماما . مشهور بالقسوة بين زملائه . لكنه إذا ما انعزل عنهم بدا كثير الهموم ، وربما بكى فى صمت لكن سلوكه العام يغلب عليه الطاعة .

أخذ المأمور يتصور ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنه فى

داره ويشارك ابنه فرحته ، لكنه عاد فمال إلى أن الفرح والحزن يتضاعف إذا ما كان الناس بعيدين عن أحبابهم .

ومنذ ذلك التاريخ لم تأت للرجل رسائل . لكنه عاد أكثر سهوما ووجوما بعد عدة ليال . كأنما استنفدت الفرحة كل ما عنده من طاقة . فبدا عصبيا أكثر من المألوف قبل ورود هذه الرسالة .. كأنها أيقظت فيه شيئا كان نائما . كذكرى حب جريح يعانيه شاب فى مقتبل العمر ..

على أنه كان قد جاوز الأربعين بكثير . ولم يكن يبدو عليه روائح الأبوة لأن تكوينه كان يتنافى مع الحنان ، ففى فكه العريض ونظرة عينيه الشاردة ولونهما الذى يذكر بلون الحديد .. قسوة .. وكانت النظرة مثل طرف الخنجر . فضلا عن صوته الأجش ولونه الكابى .

* * *

كان قد تلقى الرسالة الأولى فى أوائل صيف . وانقضى الصيف ..

وفى أوائل شهر أكتوبر حمل البريد رسالة أخرى إلى الرجل .. وفتحها المأمور كالعادة ..

رأى فيها صورة شاب وسيم الطلعة لا يمكن أن يتجاوز الثانية والعشرين . على وجهه آيات النجابة ، وعلى ظهر الصورة إهداء إلى والده الحبيب . ومع الصورة رسالة كتبت بخط أنيق دقيق

جدا يحرص كاتبها على ألا يترك فى الورقة مكانا أبيض كأنه يريد أن يطيل الحديث مع أبيه . ويقول فيها ما معناه : إنه تخرج فى كلية الحقوق بدرجة جيد جدا . وإنه والحمد لله عين وكيلا للنائب العام فى إحدى المحافظات ، وإنه سعيد بهذا التناقض الذى وقع فى حياتهم لأنه سيدافع عن الحق . فهو يعتقد على الرغم من كل شيء أنه ابن رجل شريف ؛ لأن الذى وقع لأبيه لم يكن إلا دسيسة راح ضحيتها .

وأخذ المأمور يفكر فى هذا الموقف المتناقض . فهو يعلم أن جريمة هذا الرجل اختلاس لأموال الدولة . ولا يزال هذا الرجل حتى اليوم يقول كلما حانت فرصة للقول : « لو كنت شاركت اللصوص لعشت خارج هذا السجن ولكنى لمحافظتى على شرفى دخلت هنا لصا .. وهم فى الخارج » .

لكن المأمور سرح طويلا . ولم يشأ أن يناقش الحادثة من ناحية إمكان وقوعها أو عدم إمكانه . لكنه اشتهى جدا أن يرى صورة الرجل جيدا وهو يقرأ الخطاب .

واستدعاه . وقدم إليه الخطاب والصورة . فما كان منه إلا أنه أخذ يلثم الصورة ويهتف باسم ابنه ويبكى بحنان يتناقض مع وجهه القاسى . وكانت الدموع فى مثل هذه المرة أشد من الدموع التى سبقت ، وكان يقول من خلال صوته الباكى : « وأعيش حتى أرى هذا فى الخارج يارب ؟! » .

وأخذ أوراقه وانصرف ..

ودلَّت المعلومات على أنه كثير الانطواء والبكاء أما إذا اتصل بمن حوله فهو كثير الشجار . واشتدت شراسته . حتى قال المأمور على سبيل المزاح بينه وبين نفسه : « ربما كان المنصب الذى يشغله الآن هو السبب فى ذلك » .

* * *

ومرت فترة من الوقت ، حضر إلى مكتب المأمور رجل يشكو من صاحب هذه الخطابات . فعادت إلى ذهن الرجل ذكريات دموعه ومنظره القاسى المهزوم . فصرف الشاكى واستدعى المشكو فى حقه .

مثُل أمام المأمور وهو بادى الحزن وكان فى ظنِّه أنه سيسأله عن سبب الخلاف بينه وبين جاره . لكن المأمور قال له :

ــ اسمع يا عم سيد . لك عندى رسالة جاءت بالبريد اليوم فيها أخبار سارة لك . لكنى .. لن أسلمها لك حتى ترينى صورة أبنائك ورسائلهم التى تسلمتها منى منذ مدة .

وحملق الرجل فى المأمور وحك ذقنه وهمس « جواب ؟! »

ــ أى نعم !!

بدا عليه تفكير عميق ثم نطق :

ــ الحمد لله فقد كنت بانتظاره على نار .

هز المأمور رأسه فى استجابة ، وقال برقة :

ــ عظيم .. اتفقنا يا عم سيد .

وانصرف الرجل وما لبث أن عاد ومعه الصور والخطابات .

ووضع المأمور الصورتين جنبا لجنب وأمامه الصورة الثالثة (وهى الأب) وحاول بكل ما يملك من خبرة أن يلتقط (الخط) الذى يجمع بين هؤلاء الثلاثة والذى تضفيه الوراثة على الوجوه ثم .. تبسم فى وجه الرجل وأعطاه صوره وخطاباته وقال له :

ـــ تفضل يا عم سيد . عد إلى مكانك .. شكرا .

فسأل الرجل فى لهفة :

ـــ والخطاب الجديد ؟

حماق فيه قائلا :

ـــ ليس هناك خطاب .. إننى فقط أردت أن أرى صور أبنائك .

لم يبد على وجه الرجل شيء من خيبة الأمل.كان ذلك اليوم قاسيا تماما كصورته المألوفة عنه بين النزلاء . وحك ذقنه . وخرج بظهره من المكان دون أن تحملق عيناه بنظرة متمكنة فى أى شيء حوله .

لكن حالة الرجل الصحية بدأت تسوء . وتحولت مشاكساته لكل من حوله إلى شكوى مبهمة من مرض باطنى . وعرف المأمور بخبر نقله إلى المستشفى فضم هذه الفكرة الجديدة إلى شيء كان يتوهمه فى هذا الإنسان . وكان يعرف تماما أن الذكريات والهواجس والحوادث تأخذ صورة مكبرة ألف مرة فى هذا المكان الذى يشرف عليه .. فى السجن .. حيث يسود السكون الخارجى والداخلى . ليس بالنسبة إلى المكان فقط لكن بالنسبة إلى كل إنسان يكتب عليه أن ينزل فيه .

ليس هناك خطابات ترد ، كأنما قنع
من هنا بقدره :.. وكذلك من هناك

السجية الإنسانية لن تظهر على حقيقتها . وحتى الأحلام يحاول أصحابها أن يتحكموا فيها بالزيادة أو النقص أو المنع تبعا لما تجلبه من راحة للنفس الإنسانية المسكينة .

لذلك فقد اعتقد المأمور أن المرض الباطنى الذى حل بهذاالرجل ليس إلا تعبيرا جديدا عن شيئين .. إثارة الاهتمام .. وتخاذل القوى .. فى وقت واحد .

* * *

ولم يلبث الرجل أن شفى من مرضه ولكن ليس شفاء تاما . وأخذ الزمن يدور وليس هناك خطابات ترد . كأنما قنع من هنا بقدره وشغل من هناك بقدره .

لكن حدث أن استدعى المأمور ذلك الرجل . جاء إليه يهرول . أحس أن شيئا غير عادى قد وقع . هو شىء سار على كل حال . هكذا يحدثه قلبه . كان لا يرى الأبواب فى الممرات ولا يحس أنه يهبط درجات سلم .. كان يطير .. ولأول مرة عرف الطيران بغير ريش . وحدثته نفسه فى الطريق بما يخيفه . فقد حذرته أن يكون هذا وهما . لكنه عاد فأقنع نفسه .. إنه فى صفاء روحى فى هذه الأيام .. أحلامه فضية .. وكل من حوله يقولون له : « ما لك تغيرت .. أخلاقك ساءت »ويضحكون ؛ لأنهم يقصدون أنها « تحسنت » .

وفوجىء الرجل بأن رأى المأمور بانتظاره خارج حجرته .

واقفا وعلى وجهه شيء يوحى بالطمأنينة ، وخيل إلى النزيل أنه يرى على وجه المأمور صورة والده . خيل إليه أنه بعث من قبره . فقط لو لم يلبس حلة عسكرية .

ـــ عندى خبر سار لك يا عم سيد .

وبلع الرجل ريقه :

ـــ كل أخبارك .. سارة .. يا .. سيدى !!

ـــ خمّن !!

هز رأسه عاجزا عن أن يخمن شيئا ، فليس معه شيء يقامر به حتى التخمين .

قال المأمور :

ـــ عجزت ؟!

ـــ أى نعم !.

ـــ ابنك وكيل النيابة وابنك طالب الثانوى ..

هتف الرجل فى جزع لا يوصف :

ـــ ما لهم ؟!

ـــ عندى .. فى المكتب .. بانتظارك ليروك !..

استند الرجل على أقرب حائط . وأغمض عينيه . لكن المأمور أخذه من يده برفق ودخلا إلى حجرة المكتب .

* * *

كان هناك سيدة تخطو إلى الأربعين ومعها بنت فى الرابعة عشرة .. وقع نظر الرجل عليهما فهم أن يصرخ .. وعانقته بنته

وقبلته وسلمت عليه زوجته وهى تنثر الدمع فى منديل

وتبادل الرجلان نظرة ليست طويلة لكن النزيل اعترف فيها بعبقرية المأمور وإنسانيته .

* * *

كانت زوجته قد قررت ألا تزوره لأنه ـــ إن كان صادقاً أو كاذبا ـــ قد اختلس غير محتاج . وكان اليسر بادياً عليها مع شىء عظيم من الكآبة . وكان أهله قد اتخذوا هذا القرار ونسوا ضعف الإنسان أو كوارث القدر (على حد سواء) ولم يكن للرجل أولاد بنون . ومن شدة حنينه إلى النهاية الصغرى التى يتمتع بها الإنسان والحيوان كان يسرق صور أبناء النزلاء ويكتب عليها الإهداء لنفسه . ويخرجها من السجن لتعود إليه بالبريد مرة ثانية على أنها من قلوب تحبه وتعطف عليه .

ولم يكن يظهر هذا لأحد إلا للمأمور .. خوف أن يرى أحد صورة ابنه المسروقة .. فكان إذا شعر أنه اشترى حناناً زائفا وهو يعرف حقيقته انطوى وبكى أو خاصم وشاكس .

وأخيراً مرض ..

وهكذا عرف المأمور (ذلك الرجل الذى يحمل قلب إنسان) الطريق الذى تسلكه عادة قلوب الآباء ..

المرثية البيضاء

إنه لم ير هذا المكان منذ أكثر من خمسة عشر عاما . وعندما وقعت عليه عينه تواردت عليه الذكريات .. فهذه الحديقة ذات السور وعراجين الموز التى كثيرا ما تدلت على أسلاكه على مقربة من الطريق .. العين العابرة كانت تقول عندما تقع على هذا المنظر : « يا لها من جنة ! » لكنها فى حقيقة أمرها لم تكن كذلك . وعندما تواردت عليه الذكريات أحس شيئا فشيئا أنه يعيشها من جديد . تجسدت أمامه صورة القصر الذى تظهر من خلال الأشجار بعض شرفاته والذى قضى فيه شطرا كبيرا من حياته .. شطرا لا يقل عن خمسة وثلاثين عاما ..

ها هو ذا يرى نفسه من جديد غلاما فى العاشرة من العمر تختلى به أمه ذات ليلة فى دارهم الصغيرة على حدود هذه القرية لتقول له وفى عينيها معنى غامض لم يدر هذا الصغير ليلتئذ ماذا يكون . أخبرته أمه أنه من الغد يتحتم عليه أن ينقطع عن المدرسة ..

عندئذ خفق قلبه وسأل نفسه مع شهقة صغيرة يكتمها : « ولماذا يتحتم علىَّ أن أنقطع عن المدرسة ؟! » وكانت أمه كذلك تتنهد . أطرقت نحو الحصير الذى يجلسان عليه وسلتت منه عودا أخذت تقضمه بأسنانها وهى تعاود الحديث :

ـ نعم يجب أن تنقطع عن المدرسة يا عطية .. لأنك ستلتحق بعمل سينفعك فى يوم ما .. ستكون فى خدمة الأوسطى عبد العال الطباخ منذ باكر لأن الصبى الذى كان فى خدمته قد انقطعت أخباره .. ويقولون إنه غرق وربما يكون قد رحل عن القرية خفية .. المهم أن هذا الصبى قد انقطعت أخباره وقد وقع اختيار نعمات هانم عليك أنت لتحل محل هذا الغلام الذى رحل .. وأنت تعلم يا بنى أننى أعيش فى خدمة سكان هذا القصر من قديم ..

* * *

وهكذا عاودته الذكريات وهو داخل إلى القرية بعد غيبة ما يزيد عن خمسة عشر عاما . وتذكر اليوم الذى قضاه فى المدرسة قبل أن ينقطع عنها .. نعم .. كانت الحصة الأولى فيه حصة حساب وكانت المسألة التى يحلونها فى الفصل فى ذلك اليوم تدور حول نفقات مطبخ أحد الأغنياء . كان كل شىء كأنه فأل لحياته .. وكان رأس المسألة : « اشترى طباخ وصبيه سبعين رطلا من اللحم ... » ، وضحك عطية يومئذ وأخذ يحل المسألة ببساطة وإلى جواره أحد أبناء أغنياء القرية يهمس وهو يحل مرتبكا ويقول : « سبعين رطلا .. من اللحم .. » ولا يستطيع أن ينتقل من مكانه فى المسألة . وضحك عطية فى سره وهو ينتهى من الحل ويقول فى نفسه : « إنهم يأكلونه ولا يفهمون » وأودع كراسته الدرج بعد أن كتب على غلافها من الخلف كلمة بسيطة عبَّر بها عن

شعوره : « مع السلامة » .

ومنذ ذلك اليوم غاب عن المدرسة . انتقل من الفصل إلى المطبخ فى القصر حيث كانت أمه تعيش هناك كذلك .

* * *

وهكذا عاودته الذكريات .. كان فى هذه اللحظة لا يزال يسير بحذاء سور الحديقة . وكانت أزهار برية مختلفة الألوان منتشرة بين أوراق النبات الشائك الذى سلحت به أسوار الحديقة .. نعم .. وتذكر عطية كيف انتقل من الفصل إلى القبو .. فقد كان المطبخ فى بدروم عميق فيه عدة حجرات بعضها يفتح بمعرفة أصحاب القصر وبعضها يفتح بمعرفة الخدم .

ومن بين الحجرات التى كانت لا تفتح إلا بمعرفة أصحاب القصر حجرة كانت تستأثر بكل اهتمامه ولا يستطيع أن يسأل عنها أحد ؛ لأن عبد العال الطباخ كان رجلا قاسى القلب ولعل السر فى قسوة قلبه أنه لم يلق فى عمله هناك إلا كل قسوة . وليس مرجع هذا إلى إحساسه الشخصى بل إلى أنه كثيرا ما يتناول طعامه مما يطبخه ثم يعود إلى بيته فيرى أولاده يأكلون أتفه الطعام . ولذلك كان يشعر بما يشبه تأنيب الضمير الدائم المستمر كأنه نحيب .. وعلى مرور الزمن أصبحت القسوة أساس طبعه . لذلك فإنه كان يعامل صبيه عطية بكل شراسة . فهو إن أخطأ لسعه بسيخ ساخن أو رشّه بالماء أو لوَّث ملابسه بالهباب أو قص من شعر رأسه خصلة بالمقص . ومرة من المرات اتهمه بسرقة قطعة

من اللحم . وكان لهذه الحادثة صدى فى نفس الغلام الذى كان يحتمل كل الأذى الجسمانى بشجاعة ولكنه لم يحتمل أن يتهم بمثل هذا . وظل طول ليله يبكى وأمه تكفكف دمعه .

وهكذا عاودته الذكريات ، ولا يزال سور الحديقة إلى يمينه عليه أزهار برية ملونة منثورة فى النبات الشائك .. وسأل عطية نفسه قائلا : « ماذا كان وجه مستقبله لو أنه لم يحبس عن المدرسة ؟! » لا شك أنه شيء غير هذا . فهو اليوم طباخ فى أحد مستشفيات الحكومة . يرى الأطباء وهم يقطعون الأبهاء الطويلة فى مرايلهم البيضاء النظيفة كأوراق السوسن . وعطية كذلك يلبس مثل إحدى هذه المرايل . لكنه يرى الفرق كبيرا ويعتقد بينه وبين نفسه ـ وهو صادق ـ أنه لو لم يجبر على الانقطاع عن التعليم ليكون خادما كبقية أسرته في هذا القصر ـ لربما كان اليوم يتخايل فى مريلة بيضاء من نوع آخر غير الذى يلبسه !. وحقيقة كان جديرا بذلك . وقد بكى كل مدرسيه يوم قرأوا على ظهر كراساته كلمة « مع السلامة » كتبها بخط كبير كأنه كان يستثير فى قلوب الناس نوازع الدعوة إلى المساواة ، والعمل على اختراع ميزان جديد للإنسان .

وهكذا عاودته الذكريات . وقد كان الأوسطى عبد العال الطباخ شرها فى أكله . خيل لعطية أيام كان معه فى القبو أن الرجل يأكل فوق ما يطيق . فكثيرا ما كان يأكل ثم يحس بآلام المغص .. لعله كان يشعر أنه يأكل لنفسه ولأولاده . أما صبى الطباخ فكان يلذ له

أن يراقبه وكانت مراقبته أهم عنده من تناول الطعام .. وأصبحت حياته شيئا شديد الرتابة فهو لا يرى الشمس إلا منحدرة من على الطريق إلى البدروم ولا يرى إلا أقدام بعض المارين ولا يرى إلا حجرات مقفلة من بعضها تفوح روائح يعرفها ومن بعضها تفوح روائح لا يعرفها وأخصها تلك الحجرة الغامضة التى لم يستطع أن يسأل الأوسطى عبد العال عن سرها .

وها هو ذا لا يزال يمشى إلى جوار سور الحديقة .. إنه طويل طويل مثل ليل الشتاء على الخائف . والذكريات تتوارد على رأسه . إنه لم ير هذا المكان منذ أكثر من خمسة عشر عاما . وهو الآن يذكر لماذا خرج من القرية .

كان ذلك فى ليلة مضيئة . ليست مضيئة فى القرية لأن هذه القرية لم تكن أيامها تعرف النوز . بل كانت مضيئة فى القصر . إذ كانت ربّته تحتفل بأحد أعياد ميلادها . وتوافد على المكان الهادىء ناس كثيرون من المدينة أقارب وأصهار وأطفال وشباب . وأخذت الحقول الهادئة تشعر برجفة مثل رجفة القيامة حين تناثرت فى ظلام تلك الليلة أضواء وضحكات وموسيقى وعطور . وربما همسات بحكايات عن الناس !!..

وكان عطية يومئذ طباخا شابا . وكان عمه عبد العال ومعلمه مريضا منذ أسابيع . يرقد فى مستشفى المركز . ويرى الأطباء بمرايلهم البيضاء وهم يقطعون أبهاء المستشفى .

كان قلبه يقول له أشياء كثيرة إلا الذى حدث ..

وقام بالعمل مكانه الطباخ الصغير .. عطية .. وكان شديد البهجة بما عمل ، فهذه وليمة ضخمة تحمل أعباءه . كربَّان قاد السفينة وحده للمرة الأولى .

لكنه فى آخر تلك الليلة فوجىء بربة القصر تدعوه إليها وأخذ يخمِّن وهو يصعد السلم من القبو إليها . كان قلبه يقول له أشياء كثيرة إلا الذى حدث . فقد أخبرته أنها وجدت شيئا تحت ضرسها وهى تأكل صنفا من أصناف الحلوى . وقد كتمت الأمر حتى لا يشعر الضيوف . ولما قدمت إليه هذا الشىء لم يحر جوابا فقد كان خاتما من المعدن الأبيض اعتاد عطية أن يحلى به يده اليمنى . ولم يدر كيف سقط منه . إنه كان واسعا عليه نوعا ما . ولعل جسمه كان قد نقص وزنه .. لكنه على كل حال قد سقط من يده فى وعاء الحلوى وهو على النار ..

ولم يحر عطية جوابا .. وقذفته به السيدة فى وجهه وطردته فخرج من القصر فى ليلة مضيئة . ووجد الظلام يرقد على كل الكائنات فى القرية لا فرق بين الأفران والحظائر وحجرات النوم . وسار ليلتئذ إلى جانب هذا السور الذى يراه الآن .. هذا السور نفسه .. الطويل .. الممتد .. المسلح بأشجار ذات أشواك فيها أزهار منثورة من كل لون .. ثم رحل إلى القاهرة حيث اشتغل طباخا فى أحد المستشفيات وعاش يتشهى أن ينظر إلى مريلة الطبيب ويذكر تلك الكلمة التى كتبها على كراساته يوم ودَّع المدرسة « مع السلامة » والتى قرأها مدرسوه وشعروا يومها أن هذا التلميذ يطالب

الناس بأن يخترعوا للإنسان ميزانا جديدا ..

وهكذا عاودته الذكريات .. وبات تلك الليلة فى القرية ، وفى الصباح خرج ليرى موطنه الجديد . الناس غير الناس . يتكلمون بطلاقة . لا أحد يخاف . ذلك لأن الكابوس الذى كان يسكن وراء الحديقة فى ذلك القصر ، الذى حرمه من المدرسة وخطفه ليعمل « مزمطون » ثم طباخا .. ذلك الكابوس قد رحل .. مضى .. وولّت أيامه .

وذهب إلى الحديقة ودخل من بابها .. كان هناك أيضا أطباء يرفلون فى المرايل البيضاء ويدخلون مسرعين ويخرجون مسرعين . وهناك مرضى يعالجون وأصحّاء يخرجون .

ولذ له أن يدخل إلى حيث مكان ذكرياته الأولى حيث كان الأوسطى عيد العال وهو وحيث بدأت قصة حياته ثم انتهت . حيث خدم ثم سقط خاتمه وطرد فى ليلة شاتية .

وهبط سلم البدروم . ودخل ووقف فى سبيله رجل . لكنه ما لبث أن عرفه .. فقد كان من زملائه قديما . إنه يعمل أمينا لمخزن هذا القصر الذى حوِّل إلى مستشفى . ودخل هو وزميله .. كانت روائح الأدوية تفوح فى المكان ، أما الحجرة التى كان لا يعرف سر ما فيها وهو صغير ثم عرفه وهو كبير فقد كانت مفتوحة .. وكانت مملوءة بالدقيق والسكر .. ووقف عطية يتلفت كأنه يبحث عن صورة أمه على أحد الجدران لكنه ما لبث أن أفاق

على يد تربت على كتفه ، ولما التفت إلى صاحبها وجده عم عبد العال الطباخ وقد ملأ الشيب رأسه . لكن على وجهه بشاشة لم يكن يراها من قبل . وعانقه كما يعانق الأب ابنه والابن أباه . ولما انتهى عناقهما سأل عطية وهو يبتسم عمه الطباخ القديم قائلا :

ـــ وأنت هنا أيضا ؟

فأجاب :

ـــ نعم أنا طباخ فى المستشفى .

قال عطية :

ـــ ولماذا كنت قاسيا علىَّ أيام زمان يا عم عبد العال ؟!

فأجاب الرجل :

ـــ لأن الزمان كان قاسيا على الناس كلهم يا عطية .. عانقنى مرة أخرى .

رقم الإيداع ٧٨/٢٨٠٢

الترقيم الدولى ٠ - ٢٣٧ - ٣١٦ - ٩٧٧

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

Bibliotheca Alexandrina
0293777

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه